ياسمين

رمادٌ أبيض

الكتـــاب: ياسمين -رمادٌ أبيض
المـؤلِّـف: مجد حرب

ISBN:

الطبعة الأولى /2018 /
جميع الحقوق محفوظة

سورية ـ دمشق
الحلبوني ـ بناء اتحاد الناشرين

سوريا ـ السويداء
مقابل المشفى الوطني
تلفاكس: (+963)16-211-260

kiwan.publishing@gmail.com
kiwan_house@yahoo.com
www.facebook.com/**kiwanhouse**

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الالكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

All rights reseved. No part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted by any means: electronic, mechanial, photo copying, recording or other wise, without the prior permission, in wtiting, of the publisher.

رواية

ياسمين
رمادٌ أبيض

مجد حرب

الإهـداء

إلـى زوجتـي أحـلام، تلـك السـماء التـي حملـت طموحـي بيـن نجومهـا وأطلقـت فـيّ القـوة والتصميـم بـكل موسـمِ مطـر، أعطتنـي الـدفءَ والجمـال فـي كل لحظـة ضعـف، تلـك السـماء التـي تحمّلـت تهـوري دون أن تغضـب يومـاً، فقـد عشـتُ وآمنـتُ أننـي طالمـا أملـك زوجـة كتلـك السـماء لَـن أسـقط أبـداً.

إلـى ابنتـي آنجـل التـي أصبحـت جـزءاً منـي ومـن حروفـي وأنفاسـي وابتسـامتي وكُل ذرّة فـي كيانـي الخاضـع أمـام بـراءة عينيهـا، ملاكـي المُبجّـل عن وصـف اللغات..

أحبك.

إلـى أصدقائـي المميزيـن المتوحديـن مـع ذواتهـم والمتوحديـن مـع كُتبهـم وكتاباتهـم ونصوصهـم المخفيّـة عـن أعيـن الجميـع، لتكـن هـذه المحاولـة مُجابهـةً لذواتنـا المُختبئـة لربمـا تَنطلق نحـو الحقيقـة والعلـن فـإن نجحنـا سـوف يدفـن مخاوفنـا تَحـت رُكام الأوراق وننطلـق مـن جديـد، وإن لـم ننجـح فلنأخـذ قسـطاً مـن الراحة تحـت رُكام الأوراق ولنحـاول لاحقـاً فهنـاك فسـحة مضيئـة فـي حيـاة كُلٍّ منّـا مهمـا سـادَ الظـلام.

أكثـر مـا أتمنـاه أن تجـدوا شـيئاً منكـم فـي هـذه الروايـة كمـا وجدتـم أسـماءكم بهـذا الإهـداء دون أن أكتبهـا..

هـذا جـزء مـن روايـةٍ سَـوف تَخـرج للنـور، ولأنـي أعلـم ومؤمـن جـداً أنها لا تَسـتحق النـور قَبـل أن تَمـرّ مـن أمـام عينيـك فلـن أجـرم بحقها.

لَـن أجـرم بحـق روايـةٍ كُتبت لأن هنـاك فـي أرضِ فلسـطين يوجـد إنسـان يؤمـن بـي ويؤمـن أنـي سـوف أكـون أنـا كمـا أريـدُ أنـا يومـاً مـا.

صديقتي ديما..

أفتخر بأن تُقدّمي روايتي بشغفك المُميّز إلى القارئ.

تقديم

بقلم: ديـــما

سرقت نفسي من منتصف الرواية بشَّق الأنفس لأكتب لأحد الشخصيات كل ما يؤجّج بداخلي:

يجب أن أخبرك يا يمان أنك تحاكي مشاعراً أكبر منا، تحاكي شيئاً ينساب فينا ولا نقوى على فهمه، يجري فينا الحب مجرى الدم في العروق فتتغير بصيرتنا، تتغير ذواتنا، ويصرخ فينا الأمل والبؤس في آن واحد، نصبح مثقلين برومانسيةٍ فوق كاهلنا ونصاب بالجُنون ونخلق قصصاً متشابكة، يا عزيزي إنني أقرأها فأغرق! وأشعر أنّ من حقّي مقاضاتك على كلِّ المشاعر الممنوعة التي أنتشي بها مع كل صفحة، على كل الجمل الصغيرة التي تصف تقلباتك من الداخل، لأشعر أن كلاً منّا يحمل شيئاً منك بثناياه! سافرت بين سطورك إلى ذلك الكون الموازي الذي تسكنه روحي ليلاً بيد حب كبير سكنني. كل منّا أخطأ بحقِّ نفسه وعاش ولو لثانية حبيس أخطائه وألقى بكلِّ مسؤولياته بحق نفسه في بئر الشعور بالذنب ففاض البئر وأغرقه.

إن أسوأ ما قد يحدث لأحدنا أن يصبح سجين واقع لا ينتمي له، يلتهمه الأسى على ما أضحى، وهو يعلم بقرارة نفسه أنه يستحق الأفضل ولأنك تستحقّ الأفضل كتبتَ في مذكراتك ما عجز الكثير على البوح به، كتبت عن حبٍّ لا تطاله القلوب. وحين تفعل تستحوذ على صاحبها وتهوي به إلى حرب لا تنتهي

مع ذاته! فيعود لواقعه مكسوراً حزيناً ينقصه حب ثمين يجده فقط عندما يحبُّ نفسه بحقّ، ليقوده قلبه إلى ياسمينه الجميلة التي أخذت قسطاً من الراحة بعد مراوغة طويلة، تحت نخيل المغرب وعلى شواطئ بحرها.

المقدمة

سأكتب مُذكراتي في داخلِ مُذكراتٍ أخرى لأروي قصة حياةٍ داخل الحياة، وسأعلنُ جنوني لنفسي قَبل أن أعلنهُ لكم. بل سأكتبُ بعفويةٍ صادقة لتكونَ أول محاولات الغوص في ذاتي لأخرج مخاوفي وعذابي وعشقي وآهاتي. سأكون أنا كما أنا وكما حَلمتُ أن أكون دوماً، أسعى للوصول إلى مرتبة الفنان التي لا تُدرَك، تِلك المرتبة التي وُجِدَت من أجل السعي إليها فَقط لا أكثر.

هكذا أعيش وسوف أعيش حَتى تَجّف أقلامي وتمتلئ أوراقي وأعلمُ أنها لَن تَفعل.

وكما تَخيّلتُ الإنسان دائماً أنه لُغز الآلهة سوف أفعل هذا مُجدداً بخطي المُتعرج على أوراقي لعلني أصل إلى لغزٍ تناقله الفلاسفة بصمت وإن لَم أحاول ستكون خطيئتي كبيرة جداً، ستكون خطيئة هاربٍ مُتخاذل من فهمِ ذاته المجنونة، ذاتٌ عُشقت لأنها نَرجسية وعَشقت لأنها وحيدة، وهَربت لأنها ضَعيفة، حَتى أصابها العجز وركعت أمام أصواتٍ تَنخر رأسها كُلَّ قليل. إنها أصوات الجنون والتناقض البشريّ الذي سوف أسعى جاهداً للخوض فيها بقسوة.

وأسوأ ما في ذلك أن لا مكان للمنطق في رحلتي، فإمّا أن تبدأ معي كمجنون، أو تعذرني لجنوني وترحل.

اعذرني لأن أصواتي سوف تأخذك من جزيرة قاحلة نحو جزيرة مزدهرة، ومن ثُمَّ تُغرقك في البحرِ لتتصارع قليلاً مَع ذاتك، ولكنك هل ستنجو أم لا!

صدقاً لا أعلم، فأنا مَجنون كما أخبرتك ولا أدرك شيئاً.. ولهذا سوف أترك أوراقي تَتكلم.

يمان (بطل الرواية)

[١]

مِن تحتِ فراشٍ دافئ وصوتُ النيران تَلتهم الحَطب وأنفاسُ كارولين تُثيرني أخافُ النهوضْ، أخافُ مواجهة العالم، وأبقى هناك مختبئاً تحت فراشي بدونِ حراك، ثلاثُ أرواحٍ تحاربني كُلَ يوم، منها من أحببتها، ومنها مَن عَشقتني، ومنها من لَم أفهم ما يَجولُ في داخلها، اقتربت أنفاسُ كارولين من شفتي المُرهقة من الحربِ التي خُضتها مع شفتيها في الليلةِ المَاضية وقَبلتني بحنانٍ كما العادة، كُل صباحٍ تُزيِّن شفتيّ تلك الشَقيّة، صباح الخير "قالتها بلكنتها الأوربية المُميّزة"، لَم أملكْ أكثرَ من ابتسامةٍ لأردَّ عليها السلام، ونهضتُ نحو مَكتبتي هارباً كما اعتدتُ منذ أن بدأت رحلة جنوني، أن أهربَ إلى مكتبتي المُقدسَّة ودَفترْ ذكرياتي وحبري الذي لَم يجف طالما هذا القلب يتألم وينوحُ بقصائدِ الغُربة والشوق.

لَم أستعن بالموسيقا يوماً ما، كُنت أستمع لألحان ضَربات المطر على نافذة الزجاج، سحرُ الآلهة ذاك هو مُلهمي الأول والأخيرْ، وإن بَخلت الآلهة عليّ ببعضِ المَطرْ أستعينُ بسحرِ الشرق، فَيروزْ، تلك الآلهة التي من المُحرَم وصفها حتى وكُل لغات العالم لا تَليق بها.

كُنت أعشق لون طاولتي ومَكتبتي الخشبيَّة، البنيُّ المَحروق، كُل تفاصيل تلك المَكتبة كانت تُثير العشقَ بداخلي، لونها، وما تحويه من كُتبٍ صَنعتني وأسقتني طَعم الوجود، في الرفوف الأولى كنت أملك القليلَ من روايات مَكسيم غوركي، وكانت تُزيّنها التحفه الفَنيّة "رواية العبودية"، فنحنُ جميعنا نَعيشُ العبودية، عبيدٌ

للمال، عبيدٌ للدين، عبيدٌ للزواج، عبيدٌ للسياسة، وأخيراً وأكثر ما يؤلمني أننا عبيدٌ للحب.

في الرِّفِ التالي أحتفظُ بأغلى ما أملك، كُتب وروايات نيكوس كازنتزاكيس، فلسفتهُ التَصوفية ومفهوم الحياة بعين الحاسة السادسة كما قال في كتابه التصوّف، "منقذو الآلهة"، ومُذكراته "تَقرير إلى غريغو" التي حُفرت بذكر الكثير والكثير من تَجسيد الإبداع الأدبيّ، ولن أنسى مَلحمته الفلسفية عن الحُريّة في روايته، زوربا، ويَدنوها بقليلٍ مُعجزة غابريل ماركيز التي خُضت معها كُلَّ تفاصيلها، خُضت معها الثورة والخيانة، الرذيلة والإحسان، الخيالَ والواقع، الأدب العالميّ بأزهى أشكاله، إنها رواية "مئة عامٍ من العُزلة". وفي زاوية مَكتبتي يوجد آلة السفر عبر الزمن نحو بلاد الرافدين، نحو ميثولوجيا سومر العظيمة، أساطير العشق والحرب وملاحم الآلهة التي طالما عشقتها، لقد كنتُ أحزن مع كافكا، وأغوصُ مع ديستوفيسكي في النفس البشرية، وكنتُ أسافر للفضاء وأجول المَجرَّات مَع شغفي ستيفن هوكينغ، وأحياناً أدقُ ناقوس الخَطر ليصطحبني ريتشارد دوكنز نحو المَجهول، وطالما تَخليتُ عن أخوتي البشر لأعيش بين صفحات رواية "العمى" لجوزيه سارماغون وأدرك كم أن الإنسان كائن مَمسوخ.

تتتالى الرفوفْ وتتتالى الأفكار، الفلسفات والعلم والعشق والألم والحزن والتاريخ والمُستقبل.. مَكتبتي هي المطار الذي أسافر منه إلى العالمْ، وعلى الطاولة هناكْ دَفتر مذكراتي، بصفحته الأولى كُتب "أوراقي تَتكلّم" وفي صفحته الأخيرة لَم يُكتب شيء، حاولتُ جاهداً أن أنهي حكايتي ولكني فَشلت.

ضَمَّتني كارولين من الخلف وأنا أتأمَّل ما أملك من أشيائي الثمينة، وغَمرت رائحتها النَقية جَسدي وأنا أنظرُ لكلماتي الأولى بدفترِ ذكرياتي.. ألنْ تقرأ لي ذاك الدَفتر الذي كُتب بالعربية؟ ألن تُخبرني ما ذاك السر الذي يجعلك تأتي كل صباحٍ لهنا أمام كُتبك ودفترك وتَحزن؟ "قالت لي فتاتي الأوربية" لا تَهتمي، لستُ سوى رجلٍ مَجنون، لا أتقنُ غير تمثيليّة الحُزن، تَستطيعين القول أنيّ مُمثل بارع ولا شيء يستحق اهتمامك "وقبلتُ يداها التي أحاطت عُنقي".. لستَ مُمثلاً بارعاً، بل كاذب بارع "قالتها كارولين بعد أن سحبت يديها وذهبت"، لا بأس، هي يجب أن تعتاد ذلك بعد شهرين من المُساكنة وإعادة سيناريو الهروب من سؤالها كُل صباح.

أمسكتُ قَلمي وأغمضتُ عينيّ وبدأتُ أقرأ، حانَ وقتُ الكتابة.

لكن، لماذا نَكتب؟
نَكتب لكي لا نَبكي، لا نتألم...
لكي لا نرمي أنفسنا من نافذة سطح المنزل...
لكي نَكون نَحن، نَحن البؤساء الخاملين بَين أوراقنا...
نحن الأغبياءُ والسُذَّج الذين لا نعرفُ الفرح...
لكي لا نشعر أننا على هامش الحياة...
نحن العميقون المتوحدون مَع عُمقنا...
لكي نَكون نحن فقط، نَستيقظ مثلَ جُثةٍ هامدة وننامُ مثل جثةٍ هامدة...
وعندما يسألُنا أحدهم كيف حالك، نقول "الحمدلله"
والأسوأ أننا نسمي ذلك "الحياة"

فـي الصفحـة الأولـى وصفـتُ واقعـي ووصفـت نفسـي، واقـع طالمـا تَمنيـت أن أمسـك جـذوره كـي أقتلعهـا وأنعـم بحيـاةٍ أفضـل، وذات مشـؤومة طالمـا تَمنيّت أن أدفنهـا دون تَـردُّد:

امتلكـتُ شـخصيةً مُسـتقلة عـن كُل الترسـبات الاجتماعيـة التـي زُرعـت فـي واقـعٍ يَستنشـقُ هـواء الماضـي، فقـد كنـتُ أؤمـن أن الماضـي لَـن يَرتفـع بنـا نحـو الحيـاة بـل سـوف يُغـرق المُسـتقبل المُشـرق شـيئاً فشـيئاً كمـا وصـف الفنـان الفرنسـي العظيـم جوزيـف ديزيريـه لوحتـه "الطوفـان". كانـت تِلـك اللوحـة مسـتوحاة من سِـفر التكوين، هـي تصـوّر رجـلاً يهتـم بإنقـاذ شـيخ عجـوز ذي لحيـة مـن الغـرق بينمـا يتـرك ابنـه وزوجتـه، الصـورة تَبـدو صادمـة ولكنهـا تعبيـر عـن حـال أوروبـا قَبـل عصـر النهضـة.

الرجـل العجـوز يُمثـل الماضـي، واللحيـة تمثـل التـراث واللـون الأحمـر يرمـز لمكانـة الرجـل العجـوز الدينيـة، والابـن رمـز للمسـتقبل والزوجـة رمـز الحيـاة والأرض والمحبـة والسـلام، وهمـا الأقـرب لـه حَتـى فـي تفاصيـل اللوحـة وأسـهل مـا يمكـن إنقـاذه هـو الطفـل الأقـرب والأخـف وزنـاً وإبنـه مـن صلبـه، إلا أنـه مصمـم علـى إنقـاذ رجـل غَريـب، البعيـد الـذي لا مسـتقبل لـه، وهـذا يرمـز إلـى تمسّـك الإنسـان بمعتقداتـه حتـى لـو كانـت خاطئـة و النتيجـة هـي:

إن التَمسُّـك بالماضـي قـادر علـى إغـراق المُسـتقبل، وعنـد التَدقيـق باللوحـة نـرى أن رأس الرجـل أسـود وهـذا دلالـة علـى الجهـل والتفكيـر الظلامـي.

علماً بأن الرجل العجوز تبدو عليه علامات الهرم واقتراب أجله، بينما جسدا المرأة والطفل تملأهما الحياة والخصوبة، وهذا رمز أن الأشياء المُقدسة تسيطر حتى على عقولنا وعواطفنا وخاصَّة الجهل المُقدس.

كان يُقابل استقلالي وتأثري بفنون الثورات النهضوية التاريخية ذاك كرهٌ من قبل أصحاب التطرف الديني وقد رافقهم أصحاب السلطة القمعية والأفكار الرجعية الذين يَستنشقون الماضي مثل الرجل العَجوز. تَميَّزتُ باطلاعي وثقافتي التاريخية والعلمية ولكني طالما أفتقدُ روح المرح في حياتي، بَل كنتُ كُتلةً من الجدية المُفرطة وهكذا نشأت في نهجِ الظالم المظلوم وطالما مررتُ بدهاليز الفَلسفة في ليالي سهري بين أوراقي المنثورة وكتبي المُعتبرة وقلمي المتنور، ويعتلي عنوانُ رحلتي "الحُرية هي الحل، وثورة الوعي واجب على الأحرار"..

على هذا النهج كنتُ أحارب في مُجتمع لا يملك حياةً كالحياة، بل مُجتمعٍ يمتلئ بالزوايا المُظلمة التي لَم تَنقص يوماً بل كانت تزداد أكثر وأكثر، وأنا بَين ضياع المُجتمع وتَشرد أفكاري وشُعلة طموحي أحاول أن أجد نَفسي، كنتُ تائهاً بينَ طموحاتي حتى أني أصرخُ كُل يوم صرخاتِ الضياع لكن بصمت، وأمثل دور الرزين القويّ، واثق الخطى الحَكيم، لكنّي لستُ أكثر من رجلٍ وصلت الهشاشةُ بهِ حتى الأعماق فقد كنتُ مصاباً بعقدة الذنب، أتعلمون تلك الحالة النَفسية التي تَعيشها وأنت خائف دائماً بأن تكون أذنبت بحقِّ أحدهم، لا تستطيع أن تتذوق طَعم النوم والاسترخاء وأنت تشكُ أن أحدهم قد تأذى بسببك، تلك هي الزاوية المُظلمة في حياتي البائسة التي أحاول أن أدفنها..

كنت أبني طموحي وينهدم في كل مرَّة وكأني أصبحت أجيد اللعبة بإتقان، ورغم ذلك أقاوم وأقاوم مثل صخرةٍ بدأ فتاتها يتلاشى مع ضربِ أمواج الحياةِ له.

هذا هو يمان، هذا أنا.. هكذا كُنتْ وهكذا وصفتُ نَفسي يوماً ما.

"انتهيت من وصفِ نَفسي كما كُنت. تلك الجُثَّة التي حاولت دفنها وإخفائها دائماً لأني أكرهها. ارتشفت شفةً من قهوتي وبدأت في قراءة مذكراتي المُحنطة:

سوف أتجاوز بضع صفحات وسأبدأ القراءة من لحظةٍ أصف بها ما أنا وكيف أعيش قَبل أن تصل الرسالةُ المجنونة ويتغير كُل شيء.. سوف أقرأ ما شعرت به وأبيّن الجنون الذي حصل، فهذه هي صفحاتي المفضلة.

بداية الجنون

[١]

في أوائل سنوات سَفري من سوريا تميَّزت بالنجاحِ الباهر في الخوض مع مُحيط العلمانية والعلمانيين والمُطالبة بالتغيير وهذا كان يُنفذ في الشبكة الوهمية التي كانت تُشكل وسيلة التَعبير الأفضل للأصواتِ الشابة، وعَملت في حواراتي الحادة والمُتزنة ومداخلاتي ومقالاتي على كشفِ وجهٍ مَقيت تَرتديه الأقنعة القمعية والمتطرفة. حَتى وصلت أنا ومجموعة من الشباب الجامعي والنَّهضوي من كافة أنحاء الوطن العربي إلى مرحلة من تأسيس مُنظمة وهمية تتكلّم باسم العلمانية، اللادينية، الليبرالية، النسوية، وكُل المناهج الفكرية المُحرَّمة في المُجتمع العربي المُتطرف، وكان يُرافق ذلك بَعض النشاطات على أرض الواقع مثل الخطابات في الندوات الثقافية والاعتصامات وما إلى ذلك، لكن بالنسبة لي كان كُل ذلك ضمن إطارِ الفكر التنويريّ أو ما يسمى النهضة الفكرية الإلكترونية إن صح التعبير فَقط ليس أكثر، وهذا بسبب ابتعادي عَن سوريا وعدم قُدرتي على المشاركة في الأنشطة التي تقام على أرض الواقع بعيداً عن الشبكة الوهمية، لكن بنفس الوقت لمعَ اسمي بأكثر من مدونة وتزايد عدد المتابعين لأفكاري بغير المتوقع، وبعد تأسيس المُنظمة الوهمية التي سُميت ثورة الوعي بدأت أرى الحياة من نهجٍ تنويريّ وبهدفٍ أوضح، ولَم أملك غير تلك الوسيلة في غُربتي لأثبت لنفسي أنني ما زلتُ موجوداً في هذه الحياة وما زلت قادراً على التَجديف للإبحار نحوَ مجتمعٍ أفضل. وخاصةً بَعد أن حُطم طموحي وتركت الجامعة وسافرت من بلادي لأستقر في الكويت وتحديداً العاصمة وكنت من السوريين

المحظوظين الذي حَصلوا على عقد عمل في الكويت بأحد دور النشر، وبقيتُ شخصاً مترنحاً لا يعلم ما يريد، يَستيقظُ للعمل ويعود للنوم وتَمضي أيامه وهو يصيح من الداخل "أنا لا أنتمي إلى هنا"

وُجِدَ حاجز فكري مَنيع بَيني وبين المتدينين غالباً، وبين المتطرفين دائماً، كانو يمارسون برمجتهم العقلية المُكتسبة بشكلٍ لا يناسب أفكاري ولا رابطً بينهم وبين المَنطق بكلٍ أشكاله لأنهم يعاندون الحقائق العلمية بشكلٍ مُستفز، وكما أؤمن أن مُعاندة المسيرة العلمية خطيئة لا تُكفَّر والتمسُّك بالمعتقدات التاريخية لا يسبب إلا الغرق في القاع أكثر وأكثر، وإن كان لابد من التمسك بالعقائد لهم حُريتهم في الغرق ولي حُريتي في الإبحار في بحر المعرفة، رُغم ذلك طالما حاولنا إيضاح فكرة أن مُعارضة النهج العلمي مَع المُعتقدات الدينية ليست تَهجماً على الدين بل أن العلم له مسيرة ثابتة موحدة تَعتمد على الحقائق وليس الآراء. وأن ما نُقدمه ليس نَقداً لشخص المُتديّن بل له كُل الاحترام كإنسان وله كُل الحرية في التديّن أو لا، لكن من منطلق الحرية في التعبير نحن نُقدم نهجاً شكوكيّاً علميّاً نهضوياً يؤمن لنا تَقدم المُجتمع حَسب وجهة نظرنا ليس أكثر، وكان من الممكن أن أتجاوز كُل ذلك إلا فئة المؤولين للتطرف الديني والفكري والعرقي، ولهذا كان هدفنا في منظمة ثورة الوعي كَشف الستار عن أنياب التطرف بكل أنواعه لنتقدم نحو عالمٍ أرقى.

بَين كل هؤلاء وكل هذا الاختلاف والجدل كانت توجد فتاة غامضة، كانت استثنائيّة، ذكية التدخل في الحوار بشكل لافت، مُتميزة بثقافتها في علم الاجتماع وتحليل النفس البشرية، وكانت تميل بكثرة إلى التيار النسوي الثقافي، تلك

الفتاة الغامضة بالتحديد كانت بشكل أو بآخر تجذبني بأفكارها العميقة ورزانة كلامها ومتانتها الفائقة، ما كان يُلفت انتباهي أكثر صورتها المُختارة التي تُعبر عن شخصيتها في منظمة ثورة الوعيّ، صورة للوحة مَرسومة بالألوان المائية لفتاةٍ قبيحة جداً، مشوّهة الوجه ومُلطخة بالدماء، عيناها مُتورمتان وشفتاها جافتان، كانت الفتاة في اللوحة تَنتزعُ قناعاً عن وجهها وهو قناع الفتاة الجميلة المبتسمة ذات الملامح الخلابة، ذاك الفن في التَعبير يُخفي وراءه شخصيةً تَستحق المُغامرة لاكتشافها.

وللأسف أن الغرور المُفعم به كل كياني الوهمي هناك كان محاولةً للهروب من إظهار شخصيتي الضعيفة واصطناع الشخصية المُتكبّرة اللامبالية، ولهذا كنت أحاول تجاهلَ الجميع كنوعٍ من الكاريزما المُتقنة في لعب دور مدير المُنظمة الغامض "ذاك العقل المُثقف من خلف شاشة الحاسب والجميع ينتظره حتى يتكلم". ونتيجة ذلك كانت كُل كلمة مني توزن في ميزان لكثرة المُراقبين، لكن مع فتاة المغرب تلك اختلفت الأمور، كان ما تحمله من نهجٍ فكري راقي يَجذبني دائماً كأنه طُعم مُستخدم من صيادٍ ماهر للإيقاع بشخصيةٍ مُزدوجة مثلي، ولربما أني أجذبها أيضاً بشكلٍ ما، كوني أحد مدراء ومؤسسي المُنظمة الوهمية التي تُسلَّط عليه الأضواء دائماً في كُل الحوارات وتأخذ مقالاته مساحة ترويجية أكبر من الآخرين.

قَد اعتدنا في المُنظمة أن لا نُدخل حياتنا الخاصة في أيّ حوار مُشترك مع أحد، مَع أن بركان الفضول في داخل كل منّا أنا وفتاة المغرب يكادُ أن يصل إلى حدِ الجنون، ولم أعلم عن تلك المُقنعة إلا كلماتها المُميزة وتفاصيل أفكارها

وما بين الحروفْ، ولحسنِ نيتي وكثرة فضولي بَدلتْ صورة الفتاة المُقنعة بصورتها في أحد الأيام.. ياسمين!

بَعد أن مَضت عليّ الدقائق وأنا أدقق في صورتها المألوفة عاصراً ذاكرتي لأقطف مَشهداً لها من حياتي تَذكرت من تكون تلك الفتاة، إنها الفنانة التي تَركت بداخلي بَصمة المرأة الثائرة.

ياسمين هي فتاة في منتصف العشرينات، ذات وقار خالٍ من الابتذالْ والتَصنّع، بل وقار حقيقي يَعكس شخصيتها الرَزينة، ملامحها جادة وبريئة بآن واحد مثل لوحة تشكيلية كُل خَبير يُخرج منها معاني تَختلفُ عن المعاني الأخرى، سمراء البشرة، واسعة العينين، ذاتُ شعرٍ أسود مُتطاير يصل إلى منتصف ظهرها، تتميّز بالأنوثة الصارخة في تفاصيل جسدها، وما يُكمل جمالها هي الزاوية الفكرية التي تتجسد بين أحرف كلامها المُنمق، كانت بعيدة عن التعابير السطحية والازدواجية الفكرية بشكلٍ كامل، تتهرب من الأفكار المُبتذلة والشعارات التي لا تَمسُ الواقع بأيّ صلة مثل الشعارات الاصطناعية والحوار النموذجي المُستخدم من قبل الجميع. بل كان حوارها براغماتيّاً منظماً بشكلٍ كامل، وكانت مُتمسكة بالمصطلحات الثقافية و الطرح المحايد دائماً، أعتقد أن هذا كان كافياً جداً للإعجاب بشخصيتها الاستثنائية وكما يُقال امرأة مُميزة بكل ما تَحمل الكملة من معنى.

قَد التقيت بياسمين قَبل زمن في دمشق، حيث أقيم "مهرجان المسرح العربي" وكوني مُهتماً بالفنون ومنها المَسرحية كنت من المتابعين الشغوفين لتلك المهرجانات، وهناك تركت ياسمين المَغربية أثرها في نَفسي بأدائها لمشهد

قاسٍ جداً باسم "جَهلكم هو المغتصب الأول".. كانت تدور أحداث المشهد عن امرأة مُغتصبة تَصرخ بوجه الجمهور أنها الضَحية وليست المُذنبة، تَرفع يديها إلى الأعلى وتهبط بهما لتضرب أرض المَسرح وبَعد أن ينتهي صوت صدى ضربتها تهدأ، وتهدأ حَتى تَرفع رأسها ببراءة وجمال وكأنها تَخلصت من الإنسان الغاضب الذي هبط معها وتركع على قدميها وتقول: أنتم عندما عَرضتم عليه أن يتزوجني كان الاغتصاب الثاني، وعندما أرهبني وقَمعني المُجتمع بأن أقبل خوفاً من الفضيحة كان الاغتصاب الثالث، وعندما رَخَّص القانون الاغتصاب بكل وقاحة قّد أنهكني وقَتل صوت الضحية في داخلي حَتى أنهم زَوجوني المُغتصب وما زال يَغتصبني كُل يوم لأن جهلكم هو المُغتصب الأول.

ذاك الدور الجريء يَحتاج إلى امرأة ثائرة لا تَرتجف عندما تَتكلم، ولا تَرجع خطوة للوراء دون أن تترك بصمتها في ذاكرة الجمهور، وياسمين أبدعت في ذلك، بتلك الفترة كانت الثورة النسوية تواجه قوانين تزويج المُغتصب من الضحية والمُجتمع المُبرر لحادثة الاغتصاب والتزويج تحت اسم "التَستّر على الفضيحة". وكان من المواضيع الشائكة التي خاضت به النسويات والنهضويون أمام المُجتمع وياسمين منهم.

وفي اللقاء الثاني عندما اجتمعنا في أحد المقاهي الثقافية في ندوةٍ حوارية عن المهرجان تَجمع المُنظمون والشخصيات البارزة في المسرح والناقدون والشباب الجامعيّ وهناك جرى حوارنا الأول، كنتُ أحاول الوصول لنقطةِ اختلاف بيننا لأصرح بها ويَمتد الحديث أكثر وأكثر لأستعرض نَفسي.. ذاك الأسلوب البدائي الذي يَعتمده الرجال للفتِ نظر امرأة أثارت إعجابهم، قَد أثارت شغفي وحيرتي

وابتلائي جداً حينها وحاولت التواصل معها بطريقةٍ غَير مُباشرة وتَم إنجاز ذلك عن طريقة صديقتي التي هي أحد المُنظمين للمهرجان والتقينا في اليوم الثاني قَبل أن تعود إلى المغرب، وكان هذا اللقاء هو الأخير ولكنه يَكفي لتترك بي أثراً رائعاً عن المرأة الثائرة المُفكّرة صارخة الجمال والهدوء، ورَحلت لتنقطع أخبارها بشكلٍ نهائيّ وتُصبح أحد حكاياتي القليلة التي أرويها لسجائري البنيّة.

والآن ها نَحن نلتقي من جديد بشكلٍ مُختلف دون أن نَعرف بعضنا ولكننا وقعنا في فخ الإعجاب نَفسه، علمتُ حينها أنّي انجذبتُ لأفكار تلك المرأة قَبل أي شيء آخر وهذا أكثر ما أثار شَغفي بها، واستغربتُ جداً أن ياسمين نَسيت ذاك الشاب في دمشق الذي لَحق بها من مكان إلى آخر ليحظى بحوارٍ يُرضي غايته المحهولة، أو ربما كانت تَصطنع النسيان وتتجاهل لقاءنا القَديم فَقط كونه لقاءاً عابراً لساعتين من الزمن فَقط.

وهكذا أصبحت تُكتب الكلمات منّي مُشفرة عميقة تبحث عن مرادها، مُطلقة العنان للوصول إليها، ولدرجةٍ ما كنتُ أثق أنها سوف تقرؤها وتُعجَب بها، لقد اعتدُت أن أقنع نفسي بذلك لأرضي نَرجسيتي الحمقاء، مَع أنها عارضتني في كثير من الأفكار الحاسمة مثل: رفض التقديس الكامل، عدم تعميم النَقد على الأيديولجية الدينية، ربط الدين مع ميثولوجيات التاريخ، وكما كان يتَّضح أنها تشعر بالاستفزاز من كل كلمة تُوجَّه لها من قبلي، وفي الحقيقة أن استفزازها بطريقة الاستخفاف بها وبأفكارها كان أحد هواياتي المُفضلة، لكنه استفزاز مجبول بالإعجاب والهوس كما يقول أحد الأمثال الشعبية في بَلدي: يَجب أن تَهزّ الورودْ كيّ تَشتم رائحتها.

حواراتنا كانت تمتزج بذاكرتي وتنغمس داخل دهاليز الشك دائماً وكأنها تؤرشف بشكلٍ دقيق، وكلانا نعمل جاهدين على إظهار الشخصيّة المُثقفة المتزنة المغرورة ونخفي بداخلنا الشخصية المُعجبة الفضولية، واستمر الأمر على هذا المنوال عدّةَ شهور، حتى أصبح كل شخص منا ينتظر كلمة الآخر ليَتدخل بها ويستمتع بالنزاع الفكري ليُشبع نشوته المُختبئة في داخله.

بدأ الأمر يَنفضح علناً دون إدراكٍ منّا ومع ذلك كان من قمم المتعة أن تمارس لغة الإعجاب مع شخص دون كلمات ودون تلميحات دون صوت وإنما تعتمد على تخاطرٍ استثنائيّ تشعر به بصدق أو تُقنع نفسك به بصدق وتبقى في أجواء الحيرة مَع ذاتك.

حسناً، بدأت إقحام الغزل الذي أُتقنه بكتاباتي على مدَّونتي الخاصة بعيداً عن المُنظمة، متأملاً أن يصل غَزلي إلى العالم الآخر، أكتبُ بعفوية دون مقدمات ودون أيّ ترتيبات، دون أن أعيد التدقيق ولا حتى أن أغير حرفاً واحداً، أغرزُ وحدتي وكآبتي بين الكلمات وأناجي لسماعها وأتمنى أن تصل بما تحمل من شغف صادقْ للناحية الأخرى من الشرق.

ومِن ما كَتبتُ حينها:

طوبى لمَن نَكونُ مَعهمْ نَحن كما نَحن دونَ أحراجٍ ولا تآويل.
طوبى للجِنونِ عِندما يَغزُو أصَابِعي لأكتُبَ لَكِ ما أكتُب الآن.
طوبى لِرَجفةٍ تُرافُقني بَعد أنّ أرسِلَ رِسالتي وأنتَظر!
طوبى لجمالٍ جَعلني أتعَرى مِن ذاتي لأكون مُراهقًا مِن جديد!

طوبى لكِ، وطوبى لِعينيكِ وذلك البَريق!

طوبى لابتسامةٍ صوِّرَت لتُعَلّق على حائطِ غُرفتي!

طوبى لإلهٍ تَمرَّد على المألوف ورَسمكِ بِدقة!

طوبى لي ولَكِ ولحرفِ الحاءِ والباء من بَعده و أل التَعريفِ قَبلُهما!

طوبى لكأسٍ تَحطَّمَ بَينَ يَديّ

ومرآةٍ كُسِرَت، طاولةٍ قُلِّبَت

وشعائرَ نُدِّبَت، ومشاعرَ شُوِّهَت

حَتى جِئتِ إليّ وأصلَّحتِ كُلَّ شيء لأخِطَّ قَلمي مِن جَديد وأكتب -طوبى-

كانت كلماتي ذاتُ حَدينْ: أحدهما للقارئين دون تَعمُّق، أولئك المكتفين بظاهرِ الكلمات و سهولة الوصول، والثاني هو فتاة المغرب، أكادُ أتخيلها وهي تنتظر هناك بعينيها البراقتين لتقرأ باطن كلماتي التي تَقتصدها، أتخيل أنها مُستلقية على سريرها، مُسترخية الجسد مثل أميرة على ملاءة من الحرير تحكم مملكة تفكيري، تفرد شعرها الداكن جانبها، لامعة العينين وتستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية الهادئة وتطلق عنان الخيال في عمقها وهي تقرأ أشعاري، ترتجي حضوري وأنا أرتجي لُقياها في عالمٍ مَجنون يَسكن كُلاً منَّا.

أضافت فتاة المغرب القليل من الشَغف إلى حياتي بوقتٍ قَصير، أنه لشعور مُميز أن تكتب كلماتك وتعلم أن هناك شخصاً يراقبها من بعيد، يتربّص بكتاباتك كل ليلة ليُنقب فيها باحثاً عن شيء يُمثله، ويحلّل شيفرة الأحرف ويثق كل الثقة أن هناك غَزلاً ما كُتب لأجله، لا أعلم صحة ما أقول لكني أراهن به دائماً.

بين عشرات الحوارات بيني وبينها أحدهم حُفرَ بذاكرتي إلى اليوم:

- الإنسان هو مَزيج من الأعماق الكاذبة، تتأرجح بين العشق والإحباط، بين السمّو والحزن ولا شيء مما يستشعر به صحيح بل كُل شيءٍ مؤقت ونسبيّ، صيحاتُ الرغبةِ تنطلق بداخلِ كُلٍّ منّا بكامل حُريتها المُقدسة، لكنها غالباً ما تصطدم مع حدود عدَّة، منها الحدود الاجتماعية، الحدود الدينية، الحدود السياسية أو حدود الإنسان مع ذاته. منّا من يتخطاها ليخطَّ التاريخ اسمه أنه من الأحرار، ومنّا من يتوقف عندها ليكون من الأكثرية. هو ذلك الإنسان الجدير بالثقة، من يطلق كلماته من أعماقه دون حدود، وهو أكثر من يستحق الاحترام في مُجتمعٍ يَعيش كل أشكال العبودية.

أنهيتُ كلماتي، وأرتدَّدتُ على كنبتي مُنتظراً ما ستقول تلك المُبدعة، وكتبت لي :

- أتظنُّ بُمجرّد أنك تكلَّمت بما تُفكر به دون حدود أنك حُرّ!؟ لست حراً وأنت تعلم ذلك، لست حراً طالما أنك تُخفي شيئاً ما بداخلك، لا أحد حر والعبودية مُتجذرةٌ بنا منذ أزل التاريخ، والأسئلة الشاذة تَجول دهاليز أفكارك وتَخجل من طرحها، بل تَرتعب، ولهذا حوار الأحرار لا يناسبك ولا يناسبني أيضاً، أنا فتاة أعيش بين الأكثرية وأنتمي لها وأعلم أني لا أتمتّع بالحرية الكاملة ولا أؤمنُ بوجودها حتى، لكن على الأقل أعترف بذلك.

وبعد الصدمة من استخفافها بما أقدم من مفاهيم الحُرية، بدأ النزاع لكي أدافع عن أفكاري بتذكيرها بفضلِ المُنظمة عليها، كَمُ الوقاحة بتلك الطريقة

لأثبت نفسي يَنبع من ضعفٍ مُختبئ في ذاتي ومن هروب واضح من حقيقة فشلي وأفكاري المُترهلة، وهنا استغلُ سُلطتي الذيقة كما يَفعل جميع الضعفاء وأقول لها:

- منذ متى وأنتِ تعترفين بذلك؟ حسناً سوف أخبرك أنا، ضعي مُفارقة منذ لحظة انضمامك للمنظمة واليوم. منذ اللحظة التي بدأتِ بقراءة كلماتي ومقالاتي في المُنظمة وبين الآن، قَد وجَّهتُ ضوء التنوير على زاوية من حياتك وحياة الفتاة العربية، أدين لكِ بالشكر لأني من كلماتك علمت أني نجحت.

- بالمناسبة صديقي، لا أحتاجك كي أعترف بذلك مَع أنه ليس صَحيحاً بالكامل، للأسف اندفاعك و ثقتك بنفسك تضعك في زاوية فكريّة لا تليق بك، زاوية مغرور يتخبّط ببعضه ليثبت لنفسه أنه نجح بشيء.

وفعلاً كنت أتخبّط مع ذاتي بغباء لأثبت أنّي نَجحت بشيء، تلك محادثة من أرشيف ذكرياتي معها، تُحاكي ما يجول خلف الكواليس في فكري المتناقض، تتغلغلُ في ثنايا وجداني الفكريّ بكل ذكاءٍ وحنكة مُبجَّلة، وهنا كان يكمنُ سِرُّ إعجابي بتلك الفتاة المغربية، وتبدأ رحلتي من هنا، بين معارك الفكر والعُمق الكاذب المُسيطر على الإنسان في ملحمته الفكرية المُرافقة له منذ انطلاق الوعي حتى خموده.

[٢]

وفي أحد الليالي بدأتُ أكتب روايتي على أوراقٍ مَهجورة حين وصلتني رسالة عبر برنامج يُتيح للمستخدمين مراسلة بعضهم دون الإفصاح عن الهوية، وعندما فتحت تلك الرسالة التي لا تحمل اسم المرسل و قرأت كلماتها:

هل تعرف أنني أريدك فقط أن تبتسم!

الابتسامة هي الإنحناءة التي تجعل كل شيء مستقيماً

لمست فيك حُب الخير، وقرأت الكثير من الأشياء التي لم تقلها أبداً

فأدركت جيداً كم هم تعيسون من يستخدمون عقلهم

فالقلوب التي لا تُبالي تعيش طويلاً

اذهب حيث يميل قلبك، إن عرفتني ردّ لي الرسالة وإن لم تعرفني أعلم أنك جميل و أنا أحبُّك.

ربما تلك كلمات عادية جداً، رومانسيةٌ بعض الشيء لكن طبعاً لم تكن كذلك بالنسبة إليّ، بل كانت أعظمُ من ذلك، تلك الكلمات نَبشت في وجداني شيئاً فشيئاً حتى أصبحت أخاف أن أقرأها مرةً اخرى.

كيف عَلِمَتْ أني تعيس إلى هذا الحد، وأنا المُخادع مُصطنع السعادة والراحة!

وعلمت أني أحتاج إلى الابتسامة فقط لا أكثر، أحتاجها بكل طموح خافتْ لا يثور ولا يُفصح عن شيء مما يرتجيه نحو الحياة والضحك من جديد.

والأكثر غرابة أنها علمت أن قَلبي طَيبٌ مُغفل وأنا الهارب من كشف صفاته المَخبولة.

قَد عَلِمَت أني أحتاج أن أميل وأسافر وأنطلق بدون حدود حيث يريد قلبي، حيث أريد أنا، لكني لا أستطيع، ولن أستطيع، وفقدت الأمل، فقدت كل شيء، لَقد دَفنتُ نَفسي قَبل مدةٍ من الزمن؟

كيف توصلت إلى عمقي!.. عمقي الخفيّ الذي لا يعلمه غير وسادتي الغارقة بالدموع المالحة و قلمي وأوراقي المنثورة هنا وهناك دون إفصاح ولا بوح!؟

فكرت مراراً وتكراراً: زوجتي! ليست بكاتبة لكلماتٍ مُلهمة إلى هذا الحَّد الذي يكادُ أن يصل إلى قمة الإلهام بالنسبة إليّ، إنها طيبة جداً، حنونة وتَعشقني بجنون، ربما أحبها وربما لا، وربما أني أتفهُ من أن أحكم وأفكر بذلك بعد أن مضى عدةُ أشهر على زواجنا، لكنها ليست هي، أنا متأكد، زوجتي لا تعلم أكثر من كلمات تقليدية جامدة تعيدها مراراً وتكراراً حتى مللتُ منها وضجرتُ من سماعها وأصبحتُ وقحاً معها لدرجة التجاهُل المُستمر، لا احتاج إلى كلماتٍ تَعبرُ آذاني دون أن يَرتجف قَلبي عشقاً، بل احتاج الى نبض حروفٍ يُحرك الجثة بداخلي لربما تعود للحياة من جديد "فالقلوب التي لا تبالي تعيش طويلاً، اذهب حيث يميل قلبك" شيء مثل هذا، لم أكن أريد خسارة صاحبة تلك الكلمات، ولا أريد أن يضيعَ مني إنسان رسم بسمةً على شفاهي التي باتت تُشبه

الصحـراء دون حيـاة ولا سـراب يُبشـر بالخيـر حتـى، قـد سـقتني الشـغف برقـة فـي لحظـة تَجـرَّدتُ بهـا مـن الأمـل فـي هـذا العالـم الغريـب، صـوتٌ بـدأ بالتكلـم فـي داخلي: يجـب أن أجدهـا وأن أرفعهـا عاليـاً بكلماتـي المتواضعـة وتقديـري لسـحرها المكمـون، لكـن كيـف ولمـاذا ومـاذا بعـد ذلـك؟ لا شـيء واضـح. فقـط أشـعر بقلبـي المُسـتيقظ مـن نـومٍ عَميـق يخفـق ويضـرب صـدري بقـوة وكأنـه خائـفٌ أن أتراجـع عـن قـرار البحـث عـن المـلاكِ المجهـول.

وكُلَّمـا حـاول عقلـي التدخـل لتهدئـة الأمـور وتقيّيـد أعماقـي الثائـرة زاد جنـون قلبـي وردَّدتُ تلـك الكلمـات التـي قرأتهـا منـذ قليـل "اذهـب حيـث قلبـك يميـل"

أين يميل قلبي، ياسمين؟

تلـك الفتـاة الاسـتثنائية!! إنهـا ضمـن معادلـة الجنـون التـي ترافـق سـهري، لكـن أن تعتـرف لـي بحبهـا!

- لا أعتقد.

وبأعماقـي بَيـن ضوضـاء الأفـكار وآخـر كلمتيـن قُلتهمـا فـي سّـري "أنـي لا أعتقـد" كنـتُ مـدركاً كـمّ أن كلامـي سـخيف وأنـي أعلـم كُل العلـم أنهـا ياسـمين، ولكنـي بِصدقٍ كنـت أحـاول الهـروب، لسـتُ شـخصاً يليـقُ بـه العشـق وحكايـات الولـه، أنـا هـارب مـن دقـاتِ قلـبٍ مجنـون، أبحـث عـن تبريـراتٍ سـخيفة لكـي أقـص جانحـيّ وأعـود لعالمـي دون أن أخـوض الجـروح. وبالجهـةِ المُقابلـة حيـث لا لغـة غيـر لغـة

المشاعر والعبودية، أعلم أني أميلُ لها وأنها تشغل فكري وتَستعبدني يوماً بعد آخر ومع كل كلمةٍ وتآويل يُطبع داخلي ألف معنى ومعنى.

ونحن البشر نتهربُ من العشقِ مُعتقدين أننا سَوف ننجو من بلائه الأحمق، نَكابر ونتصارع مع قلوبنا البلهاء، لكن... لكن لَم يَكن العشقُ يوماً اختياراً، بل لحظة جنون لا مفّر منها.

مِن المُشَّوق أن تبدأ رحلة عشقٍ يحول إنساناً من المنافق المُدمَّر الذي لا يستطيع أن يهيمن على نفسه، إلى السامي المُرهف المُهيمن على الكون وما يحويه من أسرارٍ وحكايات. كَم من المشّوق أن تبدأ رحلة عشقٍ من خلال كلماتٍ أتت من مجهول وهنا يبدأ الفضول بإثارة مزاد المُراهنة بداخلي، إنه نوع من الدراما التي لم نعتد عليها، مجموعة كلمات أشعلت نيران الوله وفجَّرت فيضاناً من العشقِ الغامض، ودون أيّ حفنةٍ من المنطق تفسر ما حصل مِن ثورةٍ هائمة بداخلي، أنها فقط "رسالة من مَجهول".

وللحقيقة لم تكن تلك إلا مُجرَّد كلمات، لكن..

قد طعنت قلبي بكل قسوة، طعنةً رقيقة وقسوتها مُفعمة بالرغبة، حَملت إليّ الأمل الذي طالما اشتقتُ له، أفتقده مثل جندي يبحث عن أمل الحياة في حربٍ طاحنة، وبلحظةٍ من الاستخفاف بالجميع والتكابر المُبالغ به على واقعٍ سَحيق قَد أنقذتني.

وبهذه اللحظات وأنا أجول بين أفكاري وجنوني ومُبالغتي عَلمتُ كمّ أني إنسان مَهزوز وغارق بالسوداوية يَنتظر فُرصة نجاة ليبني عليها أملاً ضَخماً من المُبالغة والابتذال، ما فكرت فيه قَبل قليل هو صوت يتلجلجُ في داخلي يُريد العشق بأيَّة طريقة حتى لو جُبر أن يَصطنع ضَربات مُتتالية بقلبي وكأنّي أعشقُ حقاً!.. إنه يُريد النجاة والشعور بوجوده لا أكثر، يريد أن يكون جزءاً من نبض هذا الكون.

كُل ذلك حَصل بأجزاءٍ من الثانية، تَضاربت الأفكار وانقسمت روحي بين عاشقة وهاربة ومستهترة ومُصطنعة!

لم أدرك إلا أن موعد لحظة الجنونِ تلك قَد حان، وأرسلتُ لها دون أن أخوض مَع عقلي أيّ جدال: "مرحبا ياسمين كيف حالك، أتعلمين من قال: القلوب التي لا تبالي تعيشُ طويلاً؟"

أرسلتها ونَظرت من نافذتي نحو السماء لأفكر لماذا بدأت مراهنتي على ياسمين بالذات، ربما لأني أتمناها أو رُبما أحقق مقولة اذهب حيثُ يميل قلبك، وكما يبدو أن الموضوع أسهل مما كنت أتخيله فنحن مثلُ الحمامِ الزَّاجل، مهما سافرنا مُغمضي العينين عبرَ القارات وفوق المحيطات سوف نَعود يوماً ما إلى برجِ العشق الذي يجمعنا وكَيف نُدرك الطريق إلى ذاك البُرج لا أحد يَعلم.

- أهلا يمان.. لا، لا أعلم!!

ضَربت يدي على رأسي شاعراً بالإحباط والخجل من الدراما الكاذبة التي عشتها، ولكن تقاطعت ضوضاءُ أفكاري بقراءة الرَدّ الثاني على رسالتي، ولم تكن لحظة اعتيادية بل قد استخدمت سِحرها مرةً أخرى:

لكني أعلم من قال: "اذهب حيثُ قلبك يميل" كانت تُجيد التلاعب بالمشاعر بذكاء، تأخذك نحو هاويةٍ وتَنتشلكُ بثانية قَبل أن يتوقف قلبك عن النبض.

بتلك اللحظات خَرجت من المُحادثة لأفتح صورتها وأتخيلها وكأنها تَجلس على حافة القَمر تُراقبني وتنتظر رسالتي. راقية تلك اللحظة المَارة على قلوبنا لترسم ابتسامةً خجولة من خلف شاشةِ الحاسب لكلٍ منّا، وبَعد أن زَيّنت البسمة وجهي وأنا أدقق في صورتها أدركتُ صَدمتي، كنتُ مثل شخص تقابل مع شيء مَدفون، ربما هو الحب، ربما الأمل ربما شيء آخر، ربما هو الصراع، وربما كنتُ أصطنع ذلك فَقط لكن ما أعلمه، كنتُ أشعرُ بوجودِ شيءٍ دفنته بيديّ قَبل زمن، والآن في هذه اللحظة عادت له الروح ليخرج نحو الحياة، هذه المرة أعرف من أين أتاني خطابُ الثورة بعد العُزلة، وأعدتُ قراءة الكلمات مرة أخرى لكن بشغفٍ أكبر، غمرني شعور بالفرح لا يختلف عن ذاك الشعور في أول مرة قرأت فيها الرسالة، لكن هذه المرة سافرتُ بين الحروف وعينيها لأجد ذاتي.

لم يكن الأمر يقتضي بعض الكلمات المنثورة، ولا يقتضي مدى بلاغتها ودقتها، بل كان الأمر عن إنسانٍ مجوف يملؤه الخمولُ والوحدة، انطوائي وجد السبيلَ نحو الحُرية، سبيلٌ للثورة على ذاته والانطلاق نحو إنسان أجاد وصفه بدقة، وجميعنا نمرُ بتلكَ اللحظات المُؤلمة التي تحتل ليالي سهرنا الوحدانية تَحت

ظلالِ الليل الساكن وصوت الضجيج في رؤوسنا، بعضنا يجدُ سبيله في أبسط الأشياء، ورغمَ بساطتها يراها عظيمة بما تَحمله من معنى، يراها مُميزة واستثنائية كما أراها أنا الآن، وسرعانَ ما يغطيها بِزيٍّ من السحر والغزل والإبداع لكي يُرضي مبدأه الإنساني الضعيف، لكي يؤمن أن تلك الكلمات البسيطة تَستحق النهوض نحو الحياة من جديد، لكي يتخلص من وحدته المقيتة التي ترافقه.

قد تشغف المرأة بأشياءٍ بَسيطة لكن تَعني لها الكثير، والطفلُ يَجد ضحكته بأشياء بَسيطة لكن تَعني له الكثير، العجائز كذلك والجميع كذلك ولكلٍ منا تَعبير عن أشياءٍ بَسيطة لا يُدركها غيره من بين الجميع.

وأنا كنتُ شخصاً وحيداً مثل جثةٍ هامدة في قبرٍ باردٍ داخل قبوٍ مُعتم حُفرَ في صحراءٍ مهجورة ويَصرخ ويَصرخ ولا أحد يَسمع صوته، شخص كهذا سوف يتمسك بأول كلمات تلمسُ قلبه لكي يحطم قَبره ويَعبر الصحراء نحو الحياة، وكلمات ياسمين كانت تلك هي أشيائي البَسيطة التي قادتني إلى الحياة من جديد.

- اسمع يمان! هل ما زلت هنا؟

- مَعك ياسمين، لكني شَردتُ قليلاً.

- أين شردتْ؟.. لا، لا، أمزح لستُ فضوليّة لهذا الحَد.

- لَن أعتبرها مَزحة بل سؤالاً جاداً سيوفر عليّ الكثير لأفتح على نَفسي طريق البوح بما أريد. لا أعلم بالتحديد أين شَردت، لكنك مُميزة، أثرتِ

إعجابي بكلماتك البسيطة وكأنها سيمفونيّة من عالم آخر تمرُّ على ذاكرتي دون تَوقف، ومع كُل محاولات تجاهلي لها تبقى تَتكرر بصوت أعلى مما سَبقه.

- لهذه الدرجة! لا أُخفي أنّي كتبت ذلك بكل صدق، والكلمات الصادقة ذات صدى قويّ جداً، يصلُ إلى عمقِ القارئ دون شك، لكن أنت تخطيت ذلك بكثير، أنت تُبالغ!

طلبتُ حينها أن نُكمل حديثنا في اتصال هاتفيّ.. قالت لي أن أتصل بها بعد خمس دقائق، فأشعلتُ سيجارتي، ووضعتُ سماعات الأذن وشغلتُ موسيقا كلاسيكية تَرافقها مؤثرات تُمثّل صوتَ البحر والأمواجِ الهادئة، كانت تلك الموسيقا خياري الأول لأتغلغل بها عند كل لحظة مميزة، اقتربتُ من نافذة غُرفتي الضيقة متجاوزاً شريكي (أيهم) في السكن وهو غارق في النوم وأحلامِ العودة للوطن، واتخذتُ نفساً من هواءٍ ملوث بدخانِ السيارات وضوضاء المُدن، واتصَلت بها لأتناسى كَل ذلك وأسافر نحو عينيها لأسردَ لها بعض أنواعِ الغزل وأبتذل الكثير من الكلمات التي سوف تَغزوا لساني دون أرادةٍ مني, وعندما اتصلت بدأت:

- ياسمين، أتعلمين النوتة الموسيقية التي تَحتاجُ إلى ضربة وترٍ حساسة لكي تُصلح حالها وتَمنحها الجمال؟ أنا تلك النوتة الموسيقية وأنتِ من أصبتِ الوتر لكي تمنحي لكياني الجمال بشكل أو بآخر

في كل لحظة من حديثنا وسماع صوت ياسمين وضحكتها وصمتها عندما تَخجل كانت تحدُث اهتزازات عظيمة في داخلي، تُشبه إحدى ملاحم أساطير الأولين التي طالما عَشقت قراءتها وعشقتُ سفري في صفحات الكُتب نحو آلهة الأغريق لأقترض منها بعض الجبروت والقوّة في أوقاتِ ضَعفي.

لكن مَع ياسمين كانت ملحمة ضارية بين إله الحكمة وإله العشق وهما يتصارعان وكأن لابد من انتصار أحدهما لإنهاء تلك الحرب الوجودية، الحياة أو الموت لأن هذا الجسد لا يتسع لكلينا، وتبقى شُعَلُ الحربِ مرفوعة نحو السماء، والصواعقُ تَنهمر والزلازلُ تُدمّر ذاتي حتى يتدخل السلاح الأقوى، صولجان نُقش عليه جُملة ياسمين (اذهب حيث يميل قلبك)..

وسرعان ما يستولي على الصولجان إله العشقِ والجنون لكي ينهي تمرُّد المنطق و يبقيه خارج الضوضاء التي أعيشها في أعماقي.

- ألن تخبرني كيف عِلمت أنني صاحبةُ الرسالة! "ياسمين مُستغربة"

- كيف! متى! لماذا! لا أعلم، تستطيعين القول أني لم أعرف فتاة ذكية غيرك ربما، ولا أحد زَيّن تَفكيري قبل النوم غيرك في الأشهر الأخيرة.

- طبعاً لن تعرف لأنك مغرور "رافقت كلماتها صوت أنفاسها وهي تهمهم مُستهزئة بغروري"

لا أخفي ذلك، اعتدتُ أن أسمع كلمة مغرور منكِ، وتُعجبني جداً.

- حسناً أيها المَغرور، أنت تُقيم في الكويت أليس كذلك؟ أسمعُ أنها جميلة جداً.

ليستْ بجمال سوريا بالنسبةِ لي، لكنها مُميزة جداً، يجب أن تضعيها في قائمة زياراتك في أقرب وقت.

- سوريا الحبيبة، أنا أتأسف لما حصل بها وأتمنى لك العودة لوطنك بأقرب وقتٍ مُمكن. راقبت حواراً لك من قبل ورأيت بين كلماتك عشقك للعودة وإكمال دراستك، بالمناسبة لماذا لم تُكمل جامعتك؟

-الموضوع مُعقد قليلاً ولكنه حَصل، بكل حال أملك من الالتزامات ما يُبقيني هنا دون التفكير بالعودة حتَّى، بمناسبة سوريا الجميلة لماذا لَم تُخبريني أنّ خَلف تلك اللوحة المُقنعة توجد الفنانة الثائرة ياسمين من قبل؟

- وهل تظنُّ أني أرسلت لك رسالة من فراغ؟ بل كنتَ تَحت اختبارٍ سرّي. بكل حال ستعود يوماً ما، أنت تَستحق بلاداً أفضل تَستقبل شَغفك بالعلم والتكنولوجيا وأفكارك الاستثنائية في التَحليل السياسيّ، أعتقد أنهم نوعاً ما يسمونك بالثروة العقلية في بلادٍ أخرى كما أخبرني عنك أصدقاؤك عندما كنتُ في دمشق. والآن بعد أن سمعتَ ذلك الإطراء حاول أن تنساه، المغرورون لا يَستحقون الإطراء بل النَقد المُستمر ليعودوا إلى صوابهم.

أنهت كلماتها بطريقة مازحة، حتى أنّي تَخيلت ملامح وجهها وهي تَرفع رأسها وتنظر لي بطرف عينها بدلعٍ طفوليّ، استمتعتُ بتخيلها حتى أخذني الشرود وبقيتُ صامتاً دون رد.

- يمان! هل أزعجك ذلك!

وأيضاً بَقيتُ صامتاً ولَم أرد عليها.

- على كل حال كنتُ أمزح، ولكن إذا كنت تَعتبر تلك المَزحة أنها تستحق الانزعاج اعتبره حديثاً جاداً "أكملت ياسمين كلامها وتَبّدل خيالي وأنا ألاحقُ ملامحها الجادة المُنتقدة في هذه المرة".

- لا ياسمين، فقط تَستطيعين القول أني في عالم آخر.

- حسناً، عندما تعود أخبرني.

- معكِ أنتِ..

- عفواً

- عالم آخر معكِ أنتِ ياسمين.

- أمم لا تَخلو من بعض الرومانسية، فتياتُ سوريا المحظوظات..

عَلمتُ حينها أن ياسمين لا تَعلم أني متزوج، كان إخبارها بذلك في تلك اللحظة إجراماً بحق ما أعيشه، والجريمة الأكبر أن يَستمر جنوني أكثر من ذلك، أن يَتضخَم الشغف بداخلي وأنا أعلمُ أن الخَبر اليقين سوف يَنتزعه ويختفي، أكملتُ حديثي معها بأعصابٍ باردة وبلحظة حسم قَررتُ أن أضرب شجرة السنديان الضربة الأخيرة، إما أن تَسقط على الجهةِ الأخرى أو أن تَسقط عليّ وتُحطمني.

وأكملت: محظوظات مَع رجل متزوج! لا أتوقع ذلك، وتباً لتواضعي أستطيع أن أقول لكِ إنها مأساة لهم.

- متزوجاً إذاً، حسناً، وأنا من مَنبري المتواضع أستطيع أن أقول لك أن تَكون متزوج وتَضع على الوضع الاجتماعي في صفحتك التعريفية في المُنظمة أنك عازب هي حَركة طفولية جداً، بصدق يمان إنها طفولية.. "وبدا الإنزعاج بصوتِ ياسمين، انزعاج نابع من الموقف السخيف الذي وضعت نفسها فيه مَع رجلٍ متزوج"

"طفولية أكثر مما تتخيلين من نظرة قصيرة المدى"... قاطعتني بعصبية وبدأت تدعوني لأتوقف عن ألاعيب الحوار والتآويل، ووصفت بالسخافة أن أقوم بتأويل كُل شيء، وعندما انتهت أكملت كلامي:

- ليس تأويلاً ولا تَبريراً ياسمين، ببساطة أنا مُشرف رئيسي في مُنظمة تَنتقد التطرف الديني والسياسي ومن الطبيعي جداً أن أخفي أيّ معلومة عن حياتي الخاصة.

- أمم.. إذاً تحبها جداً بما أنك تخاف إظهارها؟

لم تقلها ياسمين مُستنتجة بل قالتها مُتسائلة.. وبدأت سلسلة طعناتها لي بسؤالها الأول "أتحبها؟".. قلت ذلك في سرّي وأكملت:

- ربما أحبها نعم.

- أتحبها؟

- نعم.

وكم هي تلك الكلمة المُشوهة تجتاحُ نَفسي منذُ أعوام دون أن أصرخ بها أمام أحد، تلك هي العبودية التي وصفتني بها ياسمين بأحد الحوارات؟!.. بقيتُ صامتاً كما ياسمين مُغيَّبة، ومن ثَمَّ:

- حسناً يمان اعذرني على كَلمتي الأخيرة في الرسالة التي تلقَّيتها مني، وفي كل حال أنا لم أكن أعلم من قبل أنك متزوج، في آخر مرة التقيت بك في دمشق كنتَ غير مُرتبطٍ على ما أذكر، حافظ عليها وأتمنى لكما السعادة، إلى اللقاء.

"ردَّدت كلماتها الحَزينة وروحُ الانسحابِ ظاهرة في مخارجِ لَكنتها المَغربيّة، انسحبت وهي ترى نفسها حمقاء متسرعة وسَقطت شجرة السنديان عليّ كما توقعتْ."

رَميت هاتفي واتجهتُ نَحو أوراقي لأفرّغ غَضبي ووصفتُ ما يتلوني من مشاعرٍ يائسة:

السكين المُسمّم عندما يُغرَز في الروح يَشّل كُل حركة في جسمه، حتى يَسقط بجسده البارد على الأرض ولا يتبقى منه غَير اللمحةِ الأخيرة التي يأخذها من العالم قبل أن يُغمض عينيه، تلك اللمحة كانت "رسالة ياسمين" التي اتخذتها من العالم قبل أن أغمض عينيّ وأتوه بخيالي من جديد، تلك كانت حالتي بعد أن تقدَّمتُ بكلمة ساذجة كاذبة من دون داعٍ، وكأنني دمَّرتُ مرساة النجاة التي قُدمت لي بكلِ غباء. امرأة وصفتني وكأن روحي تتحدث إليّ، وكأني أتحدث إلى صيادٍ رمى صنارته الخَطيرة بأعماقي وانتظر، انتظرَ حتى أفجعني بوصفه الراقي وانتشلَ منّي شعوراً كامناً منذ أربعِ سنوات، بأيّ حقٍ فَعل ذلك وبأي حقٍ سوف يَبتعد!

هي كذلك، هي ملاك من المَغرب يحملُ معه معنى الحياة، مَعنى الجمال، معنى الوجود والشغف.

وكلما حاولت أن أنتزع القلم من يدي أعلم وأكرر أنّ لكِلّ إنسانٍ منّا لحظة ضَعف يبحث بها عن قشة إنقاذ قَبل الغَرق في بحر الإنطوائية والوحدة، حان وقت ثَورتي الحقيقيّة كي أتخلص مِن كل شيء عانيته وأعانيه و أثق أنه سوف

يرافقني كل حياتي دون حَفلةِ وداع. الضعف البشري ينبع من الأفكار الأحادية التي لا تَجد شريكاً يَسرق منها ويضيف إليها تعقيباته الخاصة، تَنبع من الظلم الاجتماعي وتكتُّل كل شيء فوق كتفيّ دون رحمة، وأفضل ما في الأمر أني أرى خلاصي بأول كلماتٍ صادقةٍ اخترقتني.

حان وقتي، حان وقت خلاصي من الصلبان ومما أتكبده من بلاء، وحين قَرَّرت ذلك بدأت الخوض في صياغة أفكاري:

- ما شَعرتُ به عندما قرأت كلمات ياسمين هو شعور لم تقدمه زوجتي لي في كلّ حياتي ولن أشعر به مستقبلاً بكل تأكيد فقد انتهت فَترة الاختبار وأصبحنا مثل تمثالين خاليين من المَشاعر، زوجتي من تلك النساء البسيطات الأنانيات بكل شيء، تُشبه الأطفال نوعاً ما، تُشبههم بحنانها وقلبها الطَيب وعفويتها حتى في أنانيتهما الحمقاء، تَبكي وتَصرخ لكيّ تَحصل على لعبتها دون أن تُدركَ شيئاً من الأذى الذي سوف تَقدمه للعبة عندما تتأرجح بها يميناً وشمالاً، وكُنت أنا لعبتها في أحد الأيام، لعبة لا تَملك صوتاً تَصرخ به لتَرفض الزبون، لعبة مسكينة تَنهار مَع صوت بكاء الأطفال.

***

توقفتُ قليلاً عن قراءة مُذكراتي وعدتُ إلى واقعي في كندا أمام مكتبتي وفنجان قهوتي المرة، ذكرت ما وصفتني به الدكتورة إيلين مارك في وينيبيغ عاصمة مقاطعة مانيتوبا الكندية، وكان ذلك بَعد استقراري في العَمل هنا، أنَّ ما كُنت مُصاباً به يسمى عُقدة الذَنب، أي العقدة التي تسبب الانفعال والشعور

بالذنب بسبب القيام بعمل ما يترك اثراً في النفس، وتترك ذنباً يلاحق صاحبه ربما مدى حياته، كان وصف الطبيبة أيلين يَصف حالتي بأدق التفاصيل، عُقدة الذَنب التي قَتلت أحدهم وما زالت روحه تُلاحقني لليوم.

البعضُ منا يولد ويَعيش كُل حياته وهو يُصارع ذاته الضَعيفة بكل قسوة، يَطرد تأنيب الضَمير في كُل ليلةٍ دون فائدة ويشعر في أعماقه أنه يَمتلك عُقدةً ما، عُقدة الذنب التي تَجعلنا نَخاف النوم إذا أخطأنا بحق أحدهم، نَخاف أن يلاحقنا في أحلامنا ويوقظنا في مُنتصف الليل بكابوسٍ مُخيف يُهلك حياتنا دون نتيجة غَير أننا نتعايش بدوامةِ التأنيب.. تلك الأفكار التي كنت أصفها قبل أن أتلقى التحليل النفسيّ لحالتي.

جميل أن يكون الفرد واعياً بما يقدم عليه، مستبصراً في نفسه والآخرين، لا يرضى ظلمها ولا ظلم غيرها، لكنَّ هؤلاء من يشعرون بتقصير وعدم مسامحة النفس سيدخلون كل يوم في صراع يُهلك الذات ويسلبها الإرادة ويجعلها أسيرة للوهم، فلا هي تتقدم ولا هي تُنجز، بل يعيشون في عالم من العبودية عالي الجدران.

مَن منَّا بلا خطيئة أو ذنب تجاه الآخرين؟ الكلُ يُدرك أنه سوف يؤذي أحدهم ويَنعم بالأنانية ليكمل حياته كما يُريد هو، إلاّ نحن أصحابُ عُقدة الذَنب، لا ندرك سوى دوامة تتأرجحُ بنا بين ذنوب الآخرين دون أن نحظى ببعضِ الأنانية ونتعلم أن نحب أنفسنا، وهكذا أقدم نَفسي أنا المَريض كما وصفني العلم.

وكَل يـوم قَبـل النـوم أردّدُ الشـهادة التـي كُتبـت عنـي عندمـا أحاطـت بـي عُقـدة الذَنـب:

أشعر بالتأنيب تجاه زوجتي، ليسَ لأني مُخطئ، بل لسببٍ أتوق لفهمه!

هَل أخطأتُ بحقها أو بحق ذاتي أكثر!

حَطَّمتنـي مـراراً وتكـراراً، ومـن ثـم بـكل هـدوء كانـت تَجمـع بقايـا حُطامـي وتحطمـه مـن جديـد، أنظـرُ لهـا وأتشـبّثُ بصـوتٍ فـي داخلـي يقـول "هـي تُحبـك، لا تَقصـد ذلك، إنهـا فقـط تُريـدُ الحصـول عليـك".

أنهيـتُ اسـتراحتي مـن القـراءة واسـتمعتُ قليـلاً للسـيمفونية التـي يُحدثهـا المطـر على زجـاج غرفتـي مثـل كل صبـاح وعـدتُ لدفتـرِ ذكرياتـي.

* * *

رَنَّ جـرس الهاتـفِ مـن جديـد، هـي ياسـمين، قَـد عـادت ولربمـا قَـد سـمعت قَصتـي مُسـتعينةً بسـحرها مـرةً أخـرى.

قالت:

- فعلاً تحبها؟! وعيناك؟!

- ما بهم عيناي!

- عيناك يملؤهما الحزن يمان، صوتك وكُل تعابيرك مَكسورة.

- ياسمين كم عمرك؟ "قُلتها متهرباً من تاريخي المُضطرب"

- تريد أن تغيّر الموضوع؟

- لا أريد ذكر أيّ من التفاصيل، كما قلتِ أنتِ أنا غامض وحياتي الزوجية تستطيعين أن تعتبريها خطاً أحمر لا يتقبل المُناقشة، لا يتقبل التقييم أو الإفصاح عن التفاصيل.

ومن ثُم بعد أن سكتُّ قليلاً حاولتُ أن أعيد الكرَّة في محاولة الغزل لأشبعَ رَغبتي وأكملت:

- أتعلمين، لن أصفَ لك إحساسي تجاهك واتجاه رسالتك، أعتقد أنك ذكية لدرجة تكفي لفهم كل ما فكرت به، وتعلمين أيضاً أنّي أراكِ ملاكاً يملك من الإحساس والجمال ما يكفي لفهم أحد البشر المغفلين مثلي، أو ربما أنتِ تفهمين الجميع لكن ما أنا متأكد منه أنك لم تؤثري بأحد بمثل تأثيرك بي. "سردت كل ذلك الغزل لأبعدها عن منصة رمي الأسئلة لعلها تَعقل وتترك تاريخي المشؤوم".. وأكملت من جديد:

- وكأنك حادثت خيالي وشغفي وروحي بآن واحد...

- ما بك، اهدأ قليلاً...

يَصعب الهدوء أمام ما أشعر به الآن...

- حسناً..

- عفواً لا داعي للشكر..

- حسناً "قالتها للمرة الثانية بلهجة أكثر حدة وشدة على حرف النون لتؤكد أنزعاجها وتتجاهل كُل ما قلت لها، ولكني لم أشعر بالخجل مِن نفسي بَعد ذلك!"

ومن ثم؟ حسناً فقط؟ تَكلمي ياسمين، أيّ شيءٍ تريدينه.

- إلى اللقاء، هذه كلماتي فقط.

أحاطني الصمت والغضب وكنتُ على وشك إنهاء الاتصال لكن بلحظةٍ ما انطلق جنونها:

- اسمعني، أرى بين حروف كلماتك شاباً مُرهف الإحساس، لكن ما يصيبني بالجنون حقاً أني إلى الآن لا أعلم لماذا أرسلت لك تلك الرسالة ومن أين انهالت علي تلك الكلمات وماذا حدث وماذا يحدث الآن وماذا سيحدث لكن أعلم أنه لا يهمني فقط.. يمان، أعلم أن الجنون يسكن في فضاء صافٍ من دون حدود أو حتى قوانين تتحكم به، دون حواجز وكأن كل شيء يقوم به من دون تخطيط، ربما أصابني نوع من الجنون الرومانسيّ معك، وسوف يرحل عمّا قريب، أو ربما كلماتك الرائعة أثارت بداخلي بعض الحنين وسوف يَجفُ عن قريب أيضاً، دُمت بخير يمان.

دام صمتها عدة ثواني ولكنها لم تستطيع أن تَأسر باقي الكلمات فأكملت:

- أنت مُميّز، ولماذا؟ لا أعلم لكني أعلم فقط أنك مميز، والآن أتمنى منك شيئاً واحداً فَقط، أن تَنسى رسالتي وتعود إلى غرورك وغموضك وكأن شيءاً لم يَكن، إلى اللقاء يا .. (صديقي).

وانتهت مُكالمتي الأولى مع ياسمين، وفُتحت أبواب عالم مُختل ولا أعلم إلى أين تؤدي فكل شيء مُظلم إلى الآن، ولا أَستطيع غير أن أَثق بأن الحياة أقصر من أن أخاف من ما وراء الظلام.

[II]

تبعاً لظروف استقرار عَملي في الكويت في دار نَشر الفرات والتزامي بالعمل لمدة طويلة بعيداً عن زوجتي وعائلتي، كان وضعي مُتَّزناً تماماً لأعيش يومي مَع ياسمين بكل تفاصيله، وهكذا بدأ الشاعر والروائي يتحرك في داخلي، بدأ كل شيء يأخذ منحى آخر من حياتي، أكتبُ و أنقد وأبدع حتى يحين منتصف الليل وأعرض كتاباتي على ياسمين، وبعد أن تحاول جاهدة بأن تتجاهلني تَستسلمُ ونتناقش بالأدب الإنجليزي القديم وكَم هو صَعب للإدراك وكثير المعاني وذات رَمزية مُبهمة بالارتقاء نحو عمقٍ أكبر، أوضح لها فكرة وتوضح لي اثنتين، أدافعُ عن الأدب الروسي بشراسة وهي تَصفه بالمُمل، أحبط روايات دان براون لأنها خالية من الفلسفة وياسمين تثور غضباً عليّ لتُدافع عن المعضلة الأخلاقية في نهاية رواية الأصل لـ دان براون لأنها ترى بِها فلسفتاً قوية، نَرمي خواطر الغزل المُرتجل كُل يوم، ونستمتع ونَضحك ونحزن عندما نتذكر نهاية روايات كافكا وحُزنه وخوفه الدائم في كُل عملٍ قَدمه، كُنّا نَعشق اللُّغة العربية، بل نقدسها ونُعلن كمّ نحن ممّتنون لها كُلما زَينّت ليالي سهرنا. والعلم أيضاً أخذ الكثير من لياليا ونحن نتحاور ونتحدى من يَعلم أكثر، كانت تَقول لي مازحة أيها الذكوري الرَّجعي، وأنا أدافع عن ذكوريتي البلهاء بكلّ ثقة وأنتقد نكد النساء كيّ يتحول مزاحها إلى غضبٍ وتَهديد، وفي لحظة هدوء أقول لها أنها مَلكة النساء وأني جُندي مُخلص تحت حكمها الأستبدادي، وبالرغم أنها تَعلم أنّي فعلاً مآول مُخادِع كانت تَبتسمُ وتهز برأسها وتُسايرني في مُبالغتي.

الكثير من الأشخاص يكتبون، يرسمون، ويبدعون ومنهم من يُغني كي يحمل إنجازه البسيط لشخصٍ سوف يبتسم عندما يراه ويقول له "رائع".. تلك اللحظة وجودية للمتوحدين مَع ذواتهم.. أن يُقدِّر شخص إنجازاتك البسيطة. هذا يُمثل حياة داخل الحياة، والهارب من واقعه مثلي من الممكن أن يَبني ذاته بفخر لأنه يعلم أن هناك خلف انطواء حروفه يوجد شخص مُميّز يترقب ما أفعل، ينتظر إبداعي لكيّ يقرأه ويبتسم ويقول لي "أنت مميز جداً، أنت نادر وتستحق حياة أفضل".

وأحياناً حتى عندما يختفي ذاك المراقب المُبتسم نبقى نكتب، ربما هو الأمل أن يعود يوماً ما، ربما هو إحياء لذكراه، لكن بالتأكيد يبقى هو وليس سواه دافع الشغف بداخلنا لكي نبدع. وهكذا كانت في داخلي تلك الأيام وما بعدها حَتى اليوم وربما إلى الأبد.

توسَّعت شُعلةُ الشَّغف الكامنة داخل قلبِ كُلٍ منا وبدأت نيرانها توترنا، شُعلة الرغبة تلك لن يطفئها غير الإفصاح عما تَحمل قلوبنا من جنونٍ وعشق، واستمرت تلك الشعلة بإطلاق الدُخان الخانق من بين أضلاع صدرينا حَتى أفصحنا عن كل شيء، كنا نملك من المشاعر ما يكفي لملئ الكون بالغزل وتَيتّم العاشقين، لكن الأمر لم يَكن بتلك السهولة. نحن لا نمرّ بعلاقة اعتيادية أو عابرة مثل أهواء المُراهقين بل نمر بعلاقة ناضجة مُعقدة ولأننا نَعلم أنها ليست عابرة تتواطأ مع آلامنا ونَقمع مشاعرنا خوفاً من البوح بها، وأنا! أنا لست من النوع الذي يبوح بكلمة دون أن يشعر بها بشكل كامل، وللأسف الموضوع لم يعد يُحتمل لكلٍ منا وحان وقت المُحاكمة. وفي أحد الليالي في مكالمة فيديو بيننا

توّصل كُل الملامح العاشقة للآخر وتوّصل الخَجل والخوف والإغراء والتوتر، وفي أثناءِ وصف لامبالاتي بشيءٍ سواها.. قالت:

- أطلق عنان أقصى ما يَسكنك من جنون على مسمعي "كانت كلمتها تَحمل نَبرة التحدي، تَحمل رغبةً تكمن بين أضلاعها وتبغي التحرُّر."
- أحبك!

وهدأ كُل شيء وكأن الأرض توقفت عن الدوران، حينها الشمسُ أشرقت من جديد وانهال الغرام ليتنفسه الجميع وكانت تلك بداية قَصتي المَجنونة.

روايةُ بيني أنا ذلك الشاب الغامض المُتهالك من تفاصيل حياته الأليمة وبين الفتاة المغربية، فتاة خارج نطاق النمطية الذي اعتدتُ عَليه، فائقة الذكاء ساحرة الكلمات، حاملة للجنون على كتفيّها الرقيقين بكل ثقة، باحثة عن مجنونٍ يَشتري منها حمولتها. وها أنا سوف أنزل الهموم من على كتفيّها لتنال بَعض الراحة وتَستقيم في مشيتها أكثر.

وبدأ كُل شيء بين النار والماء، بين النور والظلام ولا أعلمُ من يُمثّل النار ومن منّا الماء. من منّا الظلام ولا حتى مَن يُمثّل النور لكن أعلم أننا متضادين بشكل تام، لا واقع يجمعنا ولا منطق يبرر أفعالنا، لا شيء سوى قلوبٍ فارغة ملأها العشق من خلف شاشة الحاسب مَع حفنة ذكرياتٍ من أرض دمشق.

وهنا يأوّل الحب كلماتي بكل سخافة حتى يحطم ما أقول وما أفكر ويرفع شعار العشق الواحد الأحد ويتوج ليلتنا التي لا تعلم الحدود. حينها ياسمين

لـم تعقـب علـى جنونـي ولـم تَقـل شـيئاً، لكنّـي شـعرتُ برائحـة الريـاح الآتيـة مـن المغـرب، رائحـة الولـه. إنّـي استنشـقتها بحـق. أغمضـت عينـي و رحلـت نحـو فِراشـي البـارد ورميـت جسـدي عليـه وأجـواء العشـق تغمرنـي.

لـم ينـم أحدنـا تلـك الليلـة بالشـكل المُعتـاد، خاملين هادئيـن مـن دون إلهـام يملأ صدرينـا النقيّيـن، بـل أمِلْنـا النـوم بأجـواءٍ مـن البحـث عـن الـذات بيـن سـراديب الهـوى المُكمـن فـي الأكـوان المتوازيـة حيـث لا شـيء يَحكمنـا، أكـوان العشـق التـي لا يسـكن بهـا سـوى العُشـاق، يسـافرون إليهـا قَبـل نومهـم ويعـودون مَـع خيـوط شَـمس الصبـاح.

كُل شـيء قـد اختلـف شـكله، القمـر اعتـزل مهنتـه ليصبـح مرسـالاً بيننـا وينقـل القصائـد مـع نسـمة الليـل الداكـن المُغلفـة برائحـة الهـدوء، والنجـوم أصبحـت مجموعة أطفـال مـن نَسـج الكـون، تراقـب رسـائل الولـه التـي تَنقلهـا الريـاح مـن الكويـت إلـى المغـرب. كلٌّ منـا ينتظـر شَـمس الصبـاح كـي تُشـرق وتبـدأ روايـةٌ نخطهـا علـى عتبـة التاريـخ، كـي يبتـدئ أول يـوم مـن شـمس الأفـق المنتظـرة.

لـم يَغلـب النعـاس أحدنـا حتـى اسـتيقظ بسـرعة وكأنـه لَـم يَنـم. كُلٌّ منّـا متأكـد مـن رسـالة تَحمـل مرادفـاتٍ شـفافة وصادقـة تنتظـره لتتحقـق النبـوءة التـي أمضينـا ليلتنـا ونحـن نَحلـم بهـا ولنحقـق كل مـا غَزانـا مـن أحـلامٍ جَـرت أحداثهـا فـي قصـرٍ سـرمديّ، ولـم يخيـب ظـن أحَدُنـا بالآخـر بـل كل منـا وجـد رسـالته المُنتظـرة:

- ملاكـي، منقذتـي ومعذبتـي، اسـتقلالي وثورتـي، أدركـتُ نسـبية الوقـت فعـلاً وأنـا أنتظـر شـروق شـمسِ الصبـاح واسـتغربتُ أيّ وقـت وأي مـكان يتحدثـون عنـه.

مَرت عليّ سنين من السفر بين البلدان، متنقلاً من عالم إلى آخر ومبحراً من مُحيط الغرام نحو محيط العشق، مجتازاً صحراء الشوق وشَمس الجنون تَضرب رأسي العاري لكي توبخني على ما أفعل، ولكني تَحملت حرارتها وضرباتها المؤذية كيّ أصل إليك في واحةِ الصحراء، كنتِ مُستلقية هناك تحت شجرة النَخيل مُختبئة في ظلالها، تقدمتُ إليك واجتزتُ الماء دون أن أشرب، وشربتُ منكِ لأرتوي مدى الحياة.

أتعلمين؟ ببساطة أنتِ الكون، أنتِ وقتي ومكاني وكل شيء، صباح الخير.

و تلك الشَرقية الجميلة، ربما قَد أعادت ترتيب كل كلماتها، وبدأت أتخيل كيف تُفكر:

بأيِّ قواميس العشق يحصل هذا وبأيِّ مناهج الغرام؟!. ليست مشكلتي بما يحصل بقدرِ مشكلتي مع قلبي الضعيف وهو يتسارع تارة ويتباطأ تارة بعد قراءة كلماته، لماذا أمسح ما قد كتبت له ولماذا أتراجع وأتقدم وكأني بلهاء تنقاد وراء ما لا تريد وما تريد؟ "كنتُ أبعثرُ أفكاري لأتفهم ياسمين كيف تفكر وهيّ تقرأ كلماتي، اعتمدتُ ذلك منذ حديثنا الأول لأني أخاف أن أسأل لماذا وكيف قالت لي أحبك من أول رسالة، أخاف أن تكون أرسلت ذلك في لحظة ضعف مثلي، أو أنها موجة حنين سوف تَرحل كما قالت لي من قبل، أخاف أن أرى ألمها. وهي أيضاً لَم تتحدث عن تلك اللحظة!"

وبعد مُراهناتي على أفكارها بدأ شغفها يكتب وقالت:

- أشعر أن هذه اللحظة زائلة لا محالة، أشعر أني أتورط أكثر فأكثر، أشعر بجسمي يرتعش، وقلبي ينبض بسبب دنوِّك منه قبل قليل، تحوَّلت دقاته إلى دقات مرعبة ورائعة بآن واحد. كلماتي لا علاقة لها بالأخرى، فكري مُشتت ضائع حائر ولا أرى مستقراً لما ينتابني من مشاعر غير متوقعة..لكن أعلم أنك رجل مبهر، وأنا عشيقتك الآن ولكن من سجلك زائلة لا محالة!

جالت في خاطري كلماتها التي تحمل ثقلها على كتفيها، أحدهم المنطق الذي يرفض تلك العلاقة السريعة بين شاب متزوج و فتاة مُسلمة غامضّة في لحظةٍ لا تقل غموضاً عنها، والثقل الآخر هو عالم خارج حدود الكون، ساحر ومبدع تنطلق به الكلمات بجنون دون تروٍّ ودون حدود. وقلبان يلتقيان في آفاق ذلك العالم بكل شفافية ليتجاوزا كل ترتيبات الواقع الذي يحكمنا.

ومرت الساعات من الغزل وهو يتوالى هَمسّاً بَعد همس ويتتالى كشوق يقتل سابقه الأصغر ليأخذَ مكانه، وخُضنا في ليالٍ وهبتنا كل أجواء الرومانسية التي نأملها وكأن الكون يتآمر على ذاته ليقدم لنا أجواء تَليق بعشقنا، وهكذا بدأنا وهكذا سوف نكمل قصتنا مع قَلبي المغفّل والملاك المغربيّ.

[III]

عادت كارولين إليّ وأنا أقرأ مقتبسات الغزل بيني وبين ياسمين، يدها تُغطّي كتاباتي وكلمات ياسمين المُزخرفة والمُقتبسة من أشعارها النثرية فرفعت عينيّ نحوها بنظرةٍ غاضبة لأنها تعلم كم أكره أن تُعكِّر صباحي المُعتاد مع كُتبي وذكرياتي، وبعد دقيقة صَمت قالت لي أنها تَكره تلك المرأة المُختبئة بين أوراقي، إنها تعلم أن بَين الأوراق اسمُ امرأة تأسرني، برأيها لا يرسمُ حزن الرجال سوى النساء.

- حسناً، جيد كارولين، أبعدي يدك أيتها اللطيفة وعودي إلى مكانك.

أكرهها جداً. "قالتها كارولين والغضب يتطاير من عينيها"

- والمطلوب مني! "بكل هدوء وبرود"

وأكرهك أيضاً

- والمطلوب! "بنفس الطريقة الباردة"

امتلأت عينا كارولين بالغضب المحقون وأدركت كم أني حقير في تعاملي مع تلك المرأة مع أنّي نادرًا ما أصبحت أشعر بالحقارة أو الظُلم أو العَدل، لكن فعلاً لم أتفهم ماذا يُطلب مني إذا كانت تكره حزني وانطوائي الذي سَبق وعَشقته ولهذا هي معي، ماذا يتوجب عليّ أن أفعل مع تلك السخافة والتناقض الذي يجول في داخلها.

- يمان، أنا أكره حُزنك فقط ليس أكثر.. ورمت نفسها عليّ مثل طفلةٍ تَبكي دون صوتٍ ولا دموع، وفي كل نواحٍ يَخرج منها أعلم أن بكاءها ليس مُجرد بكاء لأن من تُحبه حزين، بل هيّ حزينة أيضاً، أدركت ما يحصل وعرضتُ عليها أن أكمل لها القراءة باللغة الإنجليزية لكي تهدأ وتنال مُرادها، ومنه كيّ تَكرهني ولا تَتعلق بي أكثر.

حسناً ما رأيك أن أخبرك لماذا تَحطَّم طموحي قبل أن أسافر من سوريا، ولا أقصد قدومي إلى هنا في كندا، بل سفري إلى الكويت التي مَكثت بها سنتين وأشهر!.. حينها ابتسمت كارولين ومسحت بعض دموعها لتبقى الأخرى على شفاهها وأتولى أنا ذلك وأحضرت فنجان قهوتها وجَلست بجانبي تَستمع.

إذاً لماذا سافرت إلى الكويت وماذا عن تفاصيل حياتي القديمة؟! حسناً لنعد بضع سنين وبضع صفحاتٍ للوراء، لنعد لأيامٍ مُخلَّدة في ذاكرتي تمزج النجاح والفشل مَع الكثير من السوداوية المؤلمة.

انتقلت بضع صفحات للوصولِ إلى البداية حين بدأ كُل شيء، صفحاتٍ تَسبق قرار سفري إلى الكويت وجنوني مع ياسمين وأكملت القراءة:

***

- كل شيء في خطأ! ثارت ضوضاء الحرب. حرب بدأت بين السوريين والسوريين مؤيدين ومعارضين، مجرمين وأبرياء، أقوياء وضعفاء، سارقين وفقراء، معتدلين ومتطرفين حتَّى دخلت قذارة الأمم لتنشر تطرفها الدينيّ والسياسيّ

بضريبةٍ مدفوعة من الشَعب، ومرت السنين وتَشوهت المفاهيم وأصبح السوري مادة إعلامية خاملة والشعب مُبعثر في كل مكان، على الأرصفة وفي المخيمات وفي المنظمات والبحار والصحاري، لم أكن أريد يوماً أن أكون جزءاً من لعبة السلاطين السياسيّة والأقطاب الدينية. كنت أرى أني أكثر من مُجرد حجر شطرنج في لعبة لا أملك بها القرار، كنت وطنياً بطريقتي الخاصة فالوطنية لا تُحتكر بكشلٍ مُحدد، شاب مدوّن له فكر مُستقلّ يقدمه للمجتمع عبر ساحة حوارية لبناء طبقة ثقافية مُفكرة وناقدة تأخذ الشك والبناء العقلاني والعولمة نهجاً لحياتها، أفضل ما بذلك أني لم أشعر يوماً أني صغير على ما أقتحمه من نَهج التنوير، بل أنجزتُ ما لا يستهان به وكنتُ راضياً عن ذاتي وعن وطنيتي كما أريدُ أن أقدمها بالشكل الذي أتقنه، وفي دراستي في دمشق باختصاص هندسة الحاسوب كنتُ من المُميزين الذين تُسلط الأضواء عليهم دائماً، أسابق الزمن باستمرار لأني أعلم أن التكنولوجيا هي سباقُ الأفكار ولأني أنظرُ للمستقبلِ دوماً كنت أبحث في الحوسبة الكميّة التي لم تُدَّرس بشكل رسميّ في المناهج السورية وأغلب المناهج العربية بعد، ولهذا كانت هدفي الأول في رحلة طموحي نحو دعم المحتوى العلمي وقد حققته عندما قَدمت حلقة بحثي بعنوان "الحوسبة الكميّة تَصنع المُستقبل".

في السنة الثالثة من دراستي الجامعية كنت قَد ركَّزت إمكانياتي وخبرتي في الطرح الأكاديمي كي أبدأ بطرح فكرة البحث بشكل جّدي في البيئة الجامعية عن الدمج بين الفيزياء والحوسبة وهذا ما يسمى بالحوسبة الكميّة، ورُتبت كل الأمور مع الدكتور أشرف صادق ذلك الرجل العظيم الذي دعمني بكل ما يملك لأنه كان يؤمن بي وبما لدي من موهبة في التحليل البرمجي ولهذا

وبحدثٍ استثنائيّ رتب لي د.صادق لقاء مع لجنة من دكاترة الجامعة لكيّ أقدم لهم أفكاري المُقتبسة من الجامعات الأوربية وطرحها على أن تكون قسماً قابلاً للبحث في الجامعة من أجل العمل به والتطوير قدر الإمكان وأضافتها للمحتوى العلمي في الجامعة لتكون مرجع للطلاب مدعوم من موقع الجامعة، وبَعد ثلاث سنين من عمري بالجهد في التَحضير لمشروعي حان الموعد لكي أقدم مَنهج فكرتي بشكل دقيق ومؤهل لتعجب به إدارة الجامعة ويتم تقييمه من قِبَل لجنة التَحكيم المسماة، تلك القفزة النوعية في تاريخ الجامعة تُثير بداخلي الطموح اللامحدود. ومع أني أعلم أنها لن تنجح بتلك السهولة ولن تؤهل لمحاولات البحث تحت إشراف الإدارة الجامعية لمجرد أن طالباً قدم بحثاً ممنهجاً عن دراستها وأسقط عليه ثلاث سنين من حياته، لكن أعلم أن شَرف المحاولة سوف يلفت الأنظار إليّ لأحلق نحو طموحي، وكان ذلك في تاريخ 03\03 وهو التاريخْ المُقدّس لديّ الذي أحتفل به كُل سنة أنا وسجائري الملفوفة وكأسُ خمري وانكساري في غربتي المقيتة.

حُدد الموعد في إحدى قاعات الجامعة الصغيرة وكان الحاضرون مجموعة من أصدقائي وماري كانت منهم، وثلاثة دكاترة برفقة د.صادق، وبَينهم الدكتورة همسة عبدالله مُدرّسة مادة المعالجات الصغرية وهي أكثر من أطمح لنيل إعجابها لأنها تملك مكتب برمجيات في دمشق/المزة على أعلى المستويات، وهذا ما أراه نُقطة بداية مُمتازة لي لأحقق فرصةً للتوسع في عملي وأفكاري والبحث عن سَبيل للعمل الخارجي بشكلٍ غير مباشر عن طريق معاملات المكتب الدولية، وكان على يمينها الدكتور أحمد الربيعي مدرس النُظم المنطقية والرقمية وهو أكثر من أتوتر من وجوده، شخصٌ عَبقري بمعنى الكلمة ومواجهته ليست بالأمر

الهيّن على شاب مُبتدِئ يحاول الانطلاق نحو طموحاته المَرسومة، أما الرابع كان الدكتور رؤوف مجدلاني وهذا مَركز السخرية والتحدي لديّ، كان رجلاً قصير القامة، لئيمَ الملامح بشدة، لا يدرك سوى تَصغير قيمة الطلاب وتَحطيمهم ولم يكن بمركز علمي يدعو للاحترام، حتى أني لَم أتفهم يوماً وجوده بين الدكاترة في هذا المَركز.

وبدأ موعد التَقديم لحلقة البحث، ألتقط أنفاسي وأخطف بعض نظرات الثقة من د.صادق ومن أُصدقائي الرائعين وبدأت:

صباح الخير، أشكركم على قبول الحوار حول حلقة البحث التي قمت بها وأتمنى أن تنال إعجابكم، على عكس الصور النمطية لحلقات البحث الأكاديمية سوف أقدَّم صورة للمستقبل، صورة الحاسوب الكمومي الذي تُخَاض به التجارب في أوروبا لأنه يعتبر دراسة أساسية في الحوسبة، وتبعاً لهذا أمضيت ثلاث سنوات في تحضير مَنهج علمي مُبسط كي نبدأ به رحلة البحث والتطوير والتدريس نحو الحوسبة الكميّة، وإن لم نستطع فلنبحث عن الأسباب التي منعتنا، كما علمتمونا كُل شيء يبدأ بمحاولة.

- منذ قديم الزمان.. حسناً ليس منذ القديم جداً، لِنَعُد إلى الوراء فقط 300 سنة ليس أكثر:

كان هناك العالم تشارلز بابيج "1798-1887" عالم الرياضيات الذي أسَّس فكرة الحاسب القابل للبرمجة، وتلاه العالم الذي يعدُّ الأب الروحي للحاسب آلان تورنغ في عام 1912، وهو أول من فَكّ شيفرة أغما للألمان واخترع آلة تورنغ

والتي تستخدم فكرتها الآن في المحاكاة بين الإنسان والآلة، بعد هذه اللمحة القصيرة عن بداية تاريخ الحاسب لنعود لما يقارب 40 سنة فقط للخلف ليس أكثر، فكروا معي للحظة كم كانت بدائية جداً بكُلِّ المعايير وكم تطوّرت خلال هذه المدة، ومن ثم لننتقل ليومنا الحاضر لتكتمل المُقارنة.

انتقلت خلال 300 سنة من لغة برمجية بدائية إلى محاكاة تتجسد بالحاسب الكلاسيكي بمواصفات أقل ما نقول عنها في الزمن الحاضر أنها مرفوضة بشكلٍ كامل من قبل المستخدم. تخَّيل نفسك تملك حاسباً بمواصفات ما قَبل 40 عام في يومنا الحالي!

إنها كارثة!!!!

لكن مع التطور الفائق بالسرعة والتطور للحاسب الكلاسيكي أصبحت كلُّ صفاته تتطور بشكل مضاعف عشرات المرات خلال 40 سنة فقط، وما زال يشُقُّ طريقه نحو التطور سنة وراء الأخرى. هل تتخيلون السرعة التي تتطور بها التكنولوجيا، إن لم نقم باللحاق بها لنعلم أننا نُجرم بشكلٍ ما بحق أنفسنا وحق المنهج التعليميّ!! وهنا سوف تلعب الحوسبة الكمية دورها في بناء حاسب المستقبل.

يقول العالم مارشال ماكلوهان وهو مختص في وضع النظريات في مجال الميديا:

"الحاسوب هو الاختراع البشري الأكثر روعة وعجلة، وبالمقارنة معه مثل لعبة هيلا هوب، وربما ستبدو الحواسيب الكلاسيكية المعاصرة في المستقبل مثل ألعاب أطفال بالمقارنة مع ما يمكن أن نصل إليه من تقنية وتطور في علوم الحوسبة."

وامتدت حلقة البحث لساعتين ونصف وأنا أحلقُ في عالم التكنولوجيا ونبضاتُ قَلبي تَطرق أبواب النَجاح حتى انتهيت.

وحينها أتذكر وقفتي أمام تلك اللجنة، تلك الوقفة بشغفٍ يَتضاعفُ بَعد كُلِّ كلمةٍ وجملة تدعوني للاحتفال بها كُل سنة، بعد الانتهاء من تقديم حلقة البحث ظهرت علامات الاستغراب المفاجئة على وجوههم، حتى الدكتور قصير القامة الذي لم أرهُ يوماً لا يعترض ولا ينتقد بشكلٍ استهزائيّ كانت ملامحُ الإعجاب تظهرُ عليه بشكلٍ واضح، وكلماتهم لم تفارق ذاكرتي يوماً وكأنها كانت الجسر الأول الذي أعبر به طريقي نحو النجاح، حلقة بحثي لو كانت بمركز تَصليح من اللجنة لكانت حازت على العلامة الأعلى على مستوى الجامعة في مجال الحوسبة "كما قال لي د.صادق".. وكما أوضح لي عقبتي الأولى التي أرهبتني بالوقوف أمامها الدكتور أحمد ربيعي: شَعر بصدمة تَستحق الفخر وشرح أن صَدمته نَبعت من استقبال الجامعة لحلقة بحث قدمها طالب في السنة الثالثة مَع العلم أنها بمستوى لا يقدمه سوى المحترفين في مجالهم ودكاترة مادة البرمجة وعلوم الحوسبة ذوو الخبرة المطلوبة، وأكمل بقوله: أنت تملك في عقلك مصفوفة استثنائية من التفكير تعمل على استقبال الأفكار ومعالجتها بشكل أبسط من المتوقع حتى تُنتج فكرة متكاملة، وكما يُشاع بين المبرمجين "لقد أنجزت المهمة

لكن لا تسألني كيف".. البرمجة تحمل روح إبداعية لا يتفهمها غير الأذكياء وأنت منهم.

أعاد التدخل د.صادق: أنت يجب أن تكمل موهبتك هنا كي تستمر في دراسة الماجستير وتبدأ بالتعليم في الجامعة وتقدّم كل ما لديك، أتمنى لك كل التوفيق في مَسيرتك.

أمّا المهندسة همسة عبدالله ذات اللباس الأنيق والعينين الزرقاوين والملامح الجادة المبالغ بها، أتذكر كلماتها المغرورة وهي تنظر لي من أخمص قدمي حتى أعلى رأسي:

اعتبر نفسك بدأت بالعمل معي كمُتدرب في المكتب لحين إثبات نفسك أكثر. وغيرها من كلمات الإعجاب و النقد البناء و لا يخلو الأمر من بعض التصغير من قيمة مشروعي كنوع من التحفيز، أعطتني جرعة من الثقة لم تنتهي حتى اليوم، وكانت تلك الأحداث جرعة الأمل التي اكتسبتها منهم.

انتهى تقديم حلقة البحث وغادر جميع الدكاترة من القاعة تاركين لي نظرات الإعجاب، وعند رَحيلهم اقتربت مني المهندسة همسة وأعطتني رقمها الخاص ودعتني أن أزورها في المكتب بأقرب فرصة لتجهيز الترتيبات وبدء العمل معها، وكما قالت "فُرصتك معي أكبر من حدود سوريا، بل سوف تُنجز أكثر من ذلك."

اجتمع أصدقائي حولي يقدمون التهنئة لي والفخر بأعينهم ومنهم ماري، قال أحدهم: أن فرصتي في الحصول على منحة دراسية في أوربا الشرقية عن طريق دعم المهندسة همسة سوف تكون أكبر بكثير بعد العمل معها. وهذا ما حصل بالتفصيل بعد خمسة أشهر من العمل في مكتبها. كنا في الشهر الثامن من السنة والمكتب يقوم بتلك الفترة بتسهيل أوراق التقديم للمنحة في هنغاريا المخصصة للطلاب بعض دول الوطن العربي وسوريا منهم، دار حديث بيني وبين الدكتورة همسة عن إمكانية تقديمي للهجرة إلى هنغاريا وكما ذكرت أن فرصة قبولي ستكون مُحققة تبعاً لمكانة مدونتها في الجامعة الهنغارية والتعامل بينهم، وهنا هَبط عليّ زخٌّ من الأمل والنجاح والإبداع والطموح وبدأتُ أرى نَفسي في مركزٍ علمي يليق بطاقتي الكامنة بداخلي، وبدأت بتقديم أوراقي والأمل يتوجني.

رافق تلك الفترة محاولاتي إنهاء علاقتي الغرامية ذات عمر السنتين ونصف قَسّراً عني مع ماري التي رفضت تَقديمي للمنحة الهنغارية ولم تكن أول محاولة انفصال نخوضها.. كانت تُبرر ذلك أن ابتعادي هو الموت بالنسبة إليها ولن تسمح لي بأن أقتلها. تمرُّ كلماتها على مسمعي كأنها تشابيه مجازية يرددها العشاق المراهقون وأتجاهلها لأكمل محاولة الانفصال بشكل لا يُسبِّبُ الأذية لأحد، انفصال بطريقة راقية دون أن تترك ندبةَ تؤلم قلبها كُلَّما مرّ اسمي في ذاكرتها، ولكنني فَشلت بذلك مرة واثنتين وعشرين حتى توصلت إلى مرحلةٍ من الحزمْ، غَيَّرت رقم هاتفي وابتعدت عن الجامعة لكي أنهي طلبات التقديم إلى هنغاريا متأملاً النجاح في ذلك كما تلقيت الوعود من المهندسة همسة، وانتهى كُل شيء بالنسبة لي وأصبحت ماري تَجربة المُراهقة النقيّة بداخلي.

وهنا بدأت رحلة التَحطيم لذاتي. عُدت إلى ماري بعد أن ابتعدت وقررت إنهاء العلاقة بشكلٍ تام، وكانت تلك الأحداث قَبل أن نتزوج بسنةٍ واحدة، حينها عُدت إليها ولمحبتها لي بعد أن تَدفقت دموعها كالنَّهر الصافي بطعمِ البراءة. مُجرد بعض الدموع من امرأة أعادتني بسهولة وعقدة الذنب تَجرني نحو إرضائها لكن لَم يطل الأمر حتى أُعيدت الكرة بشكلٍ مُختلف، انفصلتُ عنها بقسوةٍ أكبر، رَحلت نحو حياتي هارباً من الالتزامْ والتَملك الخانقْ مَعها ولَم أرها أكثر من تَجربةٍ اعتيادية بحياة شابٍ جامعيّ في أواخر مُراهقته، تَجربة لَم تَنجح وفقط.

لكن ماري! تلك الفتاة الطَيبة لَم ترى الموضوع أنه مُجرد تَجربة فاشلة، بَل تَحدٍّ طفولي للحصول على تلك اللعبة التي تُسمَّى يمان، بَعضُ النساء تَخضعْ دائماً أمام تَجربة العشق الأولى، أمامْ أول لَمسة يد وأول قُبلة، أول كلمةِ غَزل وأول نَزوة، تَحفر بقلبها بئراً لا يطاله إلّا الحبيب الأول، منهنَّ من تستسلم ومنهنَّ مَن تُحارب بكل أنانية للحصول على بئره العاشق متأملة أن لا يجف يوماً ما. وتلك ماري التي لاحقتني لأحافظ على البئر الذي حُفر بداخلها، أرادت ذلك بكل أنانية.

حاولت الانتحار!!

قد انتحرت، حاولت ذلك بكل بساطة كيّ تُنفذ تهديدها وتُحافظ على وجودي بعد أن طلبتُ الانفصال، قد طَلبته مثل أيّ رجل يَحلم بالحياة بحرية دون تَقييد من أحد، لَم أكن رجلاً حتى، بل مُراهقاً أحاطته مشاعره النسبية وقلبه المُغفل، بدا الأمر في البداية مثل روايةٍ تاريخية عن قصصِ العشق المُخلّدة،

لكن الأمر يختلف هنا فقد كان عشق من شخص واحد استغلّ عُقدة الذنب التي تَحكمني، ومضى تاريخي مثل دراما مُبتذلة بكل شيء، المشاعر، الشوق، الحصول والهروب، والتحفظ والبقاء، كُل شيء مبتذل إلى حدٍّ كَبير، كانت تتصرف ماري مثل طفلة صغيرة ماكرة، وأنا الوسيلة لتحقيق سعادتها وطموحها الأناني، وسعت جاهدة لذلك بكل خُبثٍ غير مَقصود، لم أشكّ يوماً أنها كاذبة، بل كانت صادقة و.. وضحية أيضاً، ضحية نفسها وتيتُّمها بي.

بكاء، انتحار، توسُّل، انحناء وقبول بكل أنواع النرجسيّة والساديّة في التعامل فقط من أجل دفع ضريبة البقاء معها، مقابل أن أنسى كلمة حان وقت النهاية التي طالما رددتها.

لا أتفهم ضَعفي حتى اليوم ولا أتفهم الاضطراب الذي يجتاحُ قلبها كي تتقبل كل تلك الحقارة مني، مشكلتي أكبر من أن تكون مشكلة عابرة، هي انطباعُ روحٍ ضعيفة مُتيَّمة بي لحد المرض وتملك من الحنان والتضحية ما يدحض قرار الفُراق لأكون باقياً معها ومضحيّاً بكل شيء خوفاً من كسرها.

كان سبب سفريّ إلى الكويت للحظة ضعف أمام جسدها المُنهار في المستشفى، بَعد أن ضَغط عليّ الجَميع من أصدقائي وعائلتي بأنه يَجب أن أدعمها في محنتها. فزرتها وهي مُستلقية على سريرٍ يَرتجي وصولي ليتخلَّص من صوتِ أنينها المُستمر بَعد أن قاموا بغسلِ معدتها التي استقبلت الكثير من الأدوية في محاولة انتحار مؤلمة. نَظرت لها ورأيتُ جسداً ضعيفاً يَرتجف نادماً على ما فعله، وعيناها كانتا مثل السراب لا تُفسر وتَغيب لحظةً وتعود لحظةً لتذرف بَعض الدموع، تلك المراهقة الكئيبة أخرجت الإنسان الصافي من داخلي وقلت

لها: أحبك وسوف نتزوج. وكانت كلماتي كافية ليتغير كل شيء في حياتي، وتبعاً لذلك بدأت الضغوط الاجتماعية عليّ بشكلٍ غير متوقع وابتعدتُ عن وطني، هجرته وتركت مُستقبلي ومنحتي الدراسية المُنتظرة من أجل إنقاذ قلب زوجتي، فكنتُ شاباً سافرتُ كي أستطيع أن أتزوج فتاةً على فراش الموت بعد أن حاولت الانتحار أثناء أزمة عصبية انتابتها في فترةٍ كآبة طويلة، ولأننا في اقتصادٍ مُحطم تمرُّ به سوريا وأنا لَم أكن سوى شاب يعمل يومياً في المساء كيّ يحقق مبلغاً بسيطاً يذهب به في اليوم التالي تجاه جامعته وطموحه فكان هذا يَستحيل أن يحقق تكاليف الزواج، وفي عاداتٍ قبليَّة في المجتمع تَقمع ماري لفعلتها وتَضغط عليّ كي أُتِمَّ الزواج، عَلمتُ حينها أني لا أملك خياراً سوى أن أسافر لأحقق ما يريدون وأتحرر من صوتِ الذنب في داخلي لأنام يوماً واحد برأسٍ يَرتجي النوم دون خوف من الغد، وجرت الأمور باتفاقيةٍ مَع ذاتي بأن أتمّ ذلك وأشترط على ماري بأن تتعالج من اضطرابها وكآبتها عند دكتور نفسي بينما أعود مَع مبلغٍ يُحقق استقلاليتي ويكفي لتَسديد ديون الزواج.

خُضت تلك اللحظات الغريبة وأنا مُغيَّب عن كُل شيء إلا صورة عينيها الذابلة في المَشفى، فَقدتُ الكثير من شَغفي ورَحل عني مُبتعداً ليتركني بَين مقصّ الزواج وعقدة الذنب وضَعفي.

قَبل أن أسافر توقعت أن أرى العالم من منظور آخر في الكويت، متأملاً أن أجد سَبيلي هنا في غربتي لأكمل مَسيرتي في عالم التكنولوجيا والبرمجة بعد أن رحلت عن جامعتي. ولكن انتهى بي الأمر بين الكُتب في دار النشر التي أعملُ بها. السنة الثانية التي تمّر عليّ في الكويت وأنا ما زلت في مكاني ولم أحقق

إلّا القليل، ما زلت أنا اليائس الهارب من لحظةِ صمودٍ أمام الواقع، حتى أني لم أحقق شيئاً أكثر من حفنة متابعين لكتاباتي التنويرية في منظمة ثورة الوعي وملاحقة لطموحي المترنِّح بين آهات الحرب، طموح أن أكون مبرمجاً لي مكاني في هذا العالمْ، طموح طالما أحاول ترميمه كل يوم كي أبدأ من جديد وأنطلق نحو الأمام ولكني بقيت هكذا حتى بدأ العد التنازلي وانقلبت الأمور رأساً على عقب. بدأت بالتحطم والذبول يوماً تلو الآخر دون أن ألحق من نفسي إلا بعض الفُتاتْ المُتعفن، لكن حققتُ زواجاً من امرأة تَعشقني حتى الموت، أراها في إجازاتي من العمل كل حين ومن ثم أعود إلى عالمي المُتهالك.

* * *

- كارولين: لماذا لم تنجح في ذلك، لماذا تَحطَّمت كُل آمالك! قد أجرمت بحق نَفسك.

أتعلمين كارو، عندما تشعرين أن الكون يتآمر عليك سوف يرافقك إدراك تضاؤل طموحك شيئاً فشيئاً ولن تقاومي ذلك إن لم تضحي، والأسوأ إن كنتِ تملكين قلباً مغفلاً يبالي بالآخرين.. سوف تنهارين بكل تأكيد ولن تضحي لتحقيق حلمك بقدرِ تضحيتك لتحقيق أحلام الآخرين، استمعي لأكمل لك حتى النهاية.

نظرتْ إليّ كارولين باستغراب، وقرأتُ لغة عينيها وما تُريد أن تقول "كُنتَ متزوجاً إذاً؟"

أشعلتُ سيجارةً فاخرة كنتُ أحتفظ بها في درجِ مَكتبي واقتربتُ من كارولين وشفتيها الجافتين وهَمستُ لها بأن تُجهز لنا فنجانين من القهوة لكي نُكمل رحلتنا. وعندما رَحلت فَتحت رواية طوق الياسمين لواسيني الأعرج وأخرجت منها صورتي مَع ياسمين، كنتُ أحتفظ بها هناك في تلك الرواية تيمناً بالعشق الذي تَملكه ياسمين نحوها فقد كانت روايتها المُفضلة. رددت في نفسي والشوقُ يَعتصرني: هل كنتُ تتوقعين أيتها الملاك أنني سوف أجلس هنا يوماً من الأيام وأحدث فتاة أوربية عن سحرك!.. أعدت صورتنا إلى الرواية قَبل أن تعود كارولين وأكملت سيجارتي أترقب وصولها وفستانها الأسود الشفاف يُبين مفاتن جسدها الرَشيق وهيّ تَتقدم نحوي. جَلست بجانبي وأكملتُ رحلتنا لنتحدث عن الجنون، أخبرتها أني كنت متزوج والاضطراب النفسي الذي عانيت منه وتفاصيل منظمة ثورة الوعيّ التي اعتزلتها وأغلقت حسابي منذُ قدومي إلى كندا، وحدثتها عَن بعض التفاصيل بشكلٍ مُختصر من الصفحات الوسطى في دفتر ذكرياتي وعن ياسمين والرسالة التي وصلتني وشعوري وبداية جنوني..

قُلت: هكذا الآن أنت تَعلمين لماذا تزوجت ولماذا تنازلت عن منحتي الدراسية وكيف تَحطَّمت آمالي ولماذا سافرت إلى الكويت ومن هي ياسمين وكيف عشقتها. حسناً لنكمل عنها قليلاً وأعود إلى الصفحة التي كنت أقرأ بها قبل قدومك. تجاوزت بعض الصفحات وأكملت قراءتي لأكمل ما حصل في رحلتي مع ياسمين نحو العالمْ الآخر من التَرف في المشاعر والتَخلي عن ما بَنيناه قسراً عنّا.

* * *

واليوم ها هي مُنقذتي تُشعل بداخلي شيئاً يعِّوضُ ما فقدتْ منذ زَمن. وحينها بدأتُ أستمتع بكل شيء، حتى أنّي عُدتُ إلى حاسوبي المحمول واسترجعت ذكرياتي مع مشاريع البرمجة التي كنت أعمل عليها قَبل أن أهاجر بلادي. من قبل كنتُ أظن أنها لا تستحق وقتي طالما هي على هامش الوجود دون دعمٍ من أحد، لكن الآن عندما أنجز شيئاً ما: سخيفاً أو قيمّاً، ناجحاً أو فاشلاً، مهما كان ذاك الشيء أنا أعلم أن هناك شخصاً يبتسم و يفتخر بإنجازي مهما كان، إنها تؤمن بي وعندها فقط سوف ينفجر الإبداع بداخلي لأقدم أكثر وأكثر وأجمع ابتساماتٍ عدّة. كان أثر ياسمين على حياتي يشبه مرحلة انتقالٍ من جسد يحمل روحاً خاملة بداخله إلى جسد يحمل روحاً مُفعمة بالإبداع، فأصبحت أعشق الموسيقا التي تعشقها ياسمين وعشقت لهجة بلادها وبدأت أرددها بابتسامة مُرهفة، إنهم يقولون "علاش" عندما يريدون أن يستفسروا عن شيءٍ ما!

ويقولون "واخا" عندما يؤكدون على شيء ما!

والأجمل عندما يقولون "كنبغيك" عندما يعبرون عن عشقهم لأحد!

أعيد شريط حياتي قبل النوم بشكل يومي، أبحث وأعيد ترتيب أفكاري لعلني أنجو وأقول لماذا قادني الزمن إلى هنا؟ ولماذا لا أجد نفسي الضائعة؟ ومحنتي الكبرى وما يطعن فؤادي بقسوة هي ثقتي بنفسي وبطموحي وطاقتي التي طالما تَمنَّيت أن أتخلص منها، ليسَ كرهاً بل ضعفاً. أعلم أني أفضل مما أنا عليه وأعلم أني لا أنتمي إلى هنا، وأصعب ما حدث معي عندما أجلس بين الجميع وأصوات مكنات الطباعة حولي وأردّد: أنا لا أنتمي إلى هنا وأعي ذلك جيداً ولكني مُحاصر!

ها أنا ذا لم أتهرب إلى اليوم من الاعتراف أن قلبي المُبالي بتلك الفتاة التي أعرفها منذ بداية شبابي والتي هي زوجتي حالياً من قادني نحو الهاوية، نحو حياة لم أتوقعها يوماً، نحو روتين يمِّزق أوصال إبداعي، رُبما لأنها بالفعل طيبة ولا تستحق أن أحملها ذلك الذنب العظيم لكن هذا لا يُبرِّر أنها بشكل أو بآخر؟ بطريقة أو بأخرى أن وجودها أقصى حياتي بشكلٍ كامل من أجل أن أترك كل ما تحدثتُ عنه وأنطلق نحو السفر من أجلها، وأنا قَد كسرتُ قلبي، طموحي ومُستقبلي بيديّ المغفلة واضطرابي النفسيّ وبتملكها المُرعب.

قدَّمت لي ما لا يمكن أن يتخطاه أحد يُقدس الحب والمرأة، قدَّمت كل الوفاء والعشق والغيرة وحتى قدمت التخلي عن حياتها من أجلي وهذا ما لم أستطيع أن اتجاوزه وكأنه يوجد وحشين في داخلي يتصارعان في معركةٍ دامية، أحدهما يلوح ما بك؟ أنت لم تعرف فتاة غيرها ولم تحاول حتى، وبأي حق تتخلى عن كل شيء وبأي حق تعليها فوق كل شيء!!!

وآخر يلوح لي بأيّ حق سوف تَكسر قلب فتاة طيب رقيق يُحبك ويعشقك ويقدم لك ما لم ولن تقدمه امرأة أخرى؟ إنها مريضة بك. وعت على الكون وعليك ولم تحد عن خطاك يوماً، ما يدمرني أن الوحشين المتصارعين في داخلي يتجاهلان ما ينقصني بحقٌ وهو "أنا" وأنا ماذا وقلبي و ولهي وحبي و شعوري أين هو ضمن هاتين المعادلتين العنيفتين؟ وما زالا يتصارعان ولم يهدأ واحد منهما يوماً.

وحين قررت أن أصنع فارساَ برداءٍ ذَهبيّ يُعلي سيفهُ على رقابهم ويَحمل صولجان العشقْ الذي نقش عليه: اذهب حيثُ يميل قلبك، ويَصرعهم دون

رحمة قد كان بسبب ياسمين، فقلبي ذاك الأسير المُتعفن في زنزانةِ الانطواء سوف ينطلق نحو حريته وميوله وما يريد. سوف أكون رسول العالم الجديد أنتظرُ الوحي كل يوم تحت خيوط القمر الخافتة لكي أتلو قصائد الجنونِ بكل طاقتي على العشق، مرة واثنتين وثلاثاً وعشرين حتى يكتفي وجداني الثائر وأكون أنا كما أنا، نعم أنا وعمقي أن نعيش في عالم سواء، بكل حواسي وأشعاري تحت ظلال صولجان العشق الأسمى، ظلال صاحبة العينين الواسعتين، تلك الفاتنة التي تَدعوني لأدخل عالم جنونها بكل ما أملك من شغفٍ مَسجون بذلك القلبِ الحزين.

أحبها جداً، بل أقدسها ولتُدفن كل مبادئي ضد التقديس بين قبور الثائرين على الولاء الكامل.

ومَّرت ليالي السهر علينا و قصائد العشق والهيام مُتزينة بأثوابِ بيضاء مُزخرفة بألحانِ الكمان الكلاسيكية التي كانت تَجمعنا في العالم الآخر. و بدأ الجنون يهيمن على أعماقنا الحَزينة ويَرفع أسواره أمام أيّ خاطرة يُحتمل أن توقظنا من أحلامنا.

وفي أجواء الغزل الأخطر حصل الآتي:

ياسمين:"لن أستطيع النوم الليلة...

لقد تورطت...

ليس حباً ولا غراماً...

بل شغفاً، شغفاً وإلهاماً...

وحدي أصدُّ الرياح وأتناثرُ كأوراقِ الخريف...

أتساقطُ من غروري، أتساقط من روحي وأعلو من جديد...

أعشقُ من يلمس روحي بأصابعه العشر...

ويلفُّ ذراع أفكاره ويغمرني...

يحتضن عقلي، يقرأ قلبي...

ويرى نفسه في عينيّ...

دُنوُّك من جنوني سوف يورطني أكثر...

أحبك"

- النوم!. لم أعد أحتاجه. بل كل ما أفعله هو أن أغمضَ عيني كي أرتقي إلى خيالٍ أعيشهُ معك دون أحد ودون واقع وحدود. حتى أني أُغربِل نفسي من كل شيء وأترك قلباً وعمقاً عاشقينْ يذهبان حيث يريدان. ينطلقان دون تردُّد وتوقُّف أمام قوانين الكون اليائسة. هذا هو ما يحصل عندما أغمض عينيَّ وأسافرُ إليكِ. أنا شخصٌ بلا عنوان، بلا مكان، أستيقظ لأكتب لك خواطر شعري، وأعيش لأراقب كلماتك عندما تَرسمين شَغفك على مياه نقيّة في أحد أنهارِ الجنّة، أستمتع بكل وصفٍ ترسمينه، وأُثارُ من كل تفاصيلك بحقْ. كأنك واقع يلمسني ويحييني من جديد، تَنتشلين مني مزيجاً من المشاعر قد مات منذ زمنٍ بعيد. نعم هكذا تجري الأمور، إني أرى نفسي بكِ من جديد، ولأختصر كل ما يجتاح فكري بكلمة واحدة تختصر معاناتي في الوصف: أنتِ الكون وعيونكِ مَجرَّة.

***

أهـذا أنـت!. قاطعـت كارولـين قراءتـي مـن جَديـد بسـؤالٍ سَـخيف، أهـذا أنـا! سـحقاً مـن يكـون إذاً!.. تَكتمـتُ على غضبـي مـن مقاطعتهـا لـي كل قليـل وتشـويه صباحـي المُعتـاد أمـام أوراقـي.

- معك كارو هذا أنا، تتوقعين أن أكتب مذكرات صديقي أيهم مثلاً!

ابتسـمت كارولـين بخجـل وأمسـكت يـدي ورسـمتْ قُبلـة على شـفتي المُرتجفـة وقالـت لـي:

كـفَّ عـن الاسـتهزاء أنـا فقـط مصدومـة. عرفتـك رجـلاً جامـداً بـارداً حَزينـاً، وأحببتـك لأجـل ذلـك، لأجـل الغمـوض والغضـب فـي عُقـدة حاجبيـك، أعشـقُ ملامحـك الشـرقية الحزينـة.. لكـن هنـا بيـن تلـك الأوراق رجـلٌ رومنسـيّ يَعشـق الغـزل والعشـق والحيـاة رُغـم مـا مـرّ بـه.

وضعتُ قلماً بين الأوراق لكي أعود للقراءة والتفتُّ نحو كارو:

مـا قـرأتُ لـكْ ليس مـا حَطَّمني وانتشـل الإنسـان مـن داخلي. مـا قُلتـه إلى الآن أشـبه بضربـةِ شـفرة بسـيطة مقارنـةً مـع الرصاصـة التـي تلقيتُهـا، مـا رأيـك أن نُكمـل للنهايـة دون أن أتوقـف الآن؟

هزّت رأسها كارو وأعلنت موافقتها وأكملت القراءة عن حياتي بتلك الفترة.

[IV]

حياتي في تلك الفترة رافقتها شُحنات اليأس من واقعي المرير، من نواحي عدة تبدأ من خلفيتي الفكرية التي شُبهت بالشذوذ بَين الأفكار النمطية التي نَعيش بها وتنتهي بوضعي الاجتماعي الذي ينتظرني في سوريا. ماري الطيبة التي تَعد الأيام والدقائق لرؤيتي، وأنا أعيشُ في عالمٍ آخر كُتب على بوابة دخوله "أعشق فتاة مغربية بكلِّ شغفي وأعماقي" ومع الأيام بدأتُ إعادة ترتيب قراراتي بكلِّ شيء وهذا ليس بعيداً عن حياتي في دمشق وعن إكمالي رحلة العُقد النفسية مَع زوجتي.

أصبحت أعدُّ قهوتي و أصغي لموسيقاي المفضلة وأتعايش مع تلك الأصوات المُميزة التي تصطحبني إلى جنَّةٍ في السماء السابعة، أتشاركُ مع بعضِ الألحان مصالح أنانيَّة وأسرقُ منهم شَغفي كي يكونوا جزءاً من كتاباتي وأشعاري، وقد كانت أصوات مُحددة تمس روحي وتدنو مني لتخرج مشاعري وتطبعها على أوراقي البيضاء، وعندما أنتهي أبدأ أنظر للأمور من زاوية أخرى، زاوية مُعتمة وغامضة، أبحث بها عن فسحة نور لكي أنطلق نحو ملاكي هناك في أقصى الشرق و أمارس جنوني الذي يملأ أجواء غرفتي الصغيرة لكن بحدودٍ أكبر، أمارسه بين يديها السمراء.

ولم يختلف الأمر بالنسبة إلى ياسمين، يُرهبني غموضها و توحُّدها مع ذاتها، ياسمين التي كانت تَخفُّت بكلماتها بعد كل لحظة عشق تتوج ليلتنا الرومانسية.

إنها تعلم أنَّها تُمارس جنوناً لا يتجاوزه جنون، وتَعبرُ نحو جنونٍ آخر بدون فوهة ضوء تَزرع الأمل في داخلها.

(أن يصل بك الأمر لأن تُغربل نفسك أمام أحدهم لتغدو نقياً وعارياً من النفاق والأحكام المسبقة وذاتك المشوّهة هو جنون،

هو فضيلةٌ تَسكنُ بين الرذائل،

هو أن تكون أنت ومن راقب انسلاخك عن ذاتك روحاً واحدة)

كانت تُعبر عن مشاعرها بكلماتٍ مُرتبكة وخائفة، وسرعان ما أتمّ عنها مهتمها في الوصف وأكمل ما يجول بخاطرها.. ولهذا كانت لي رَغبة بأن تُكشف بَعض الأوراق:

- رائع أنت، أخشى تلك اللحظة التي سوف أفقد بها لقياك وكلماتك التي تُغرقني بك حتى الجنون ولكنك ما زلت تورطني أكثر وأكثر دون أن تدري ذلك، وإلى متى؟

لا تخشي شيئاً سوى أن تكف الأرض عن الدوران ولا يأتي الليل ليؤنس وحدتنا، ما نحن سوى عابرين في شارع الحبّ نختلس الخواطر من بعضنا حتى يأتي يوم وتنطفئ أنوار ذلك الشارع، ولهذا لنسترق من شارعنا السّري بَعض القُبل تحت أضواء مصابيحه الخافتة.

- ياسمين: افهمني يمان، أشعر أن هذه اللحظة زائلة لا محالة، إني أتورط بك حتَّى التَيُّتم، افهم ما يحصل أرجوك، أنا فتاة تعشقك وترتوي من عُمق حروفك

وتتناثر مثل سنابل الخريف عند غيابك، أنا فتاة حُطمت وها أنت تُنقذني وتوقظني من سباتٍ يَغزيه الجاثوم كُل ليلة، سباتٍ رُميّتُ بهِ قمعاً وبهتاناً.

أنت تفعل ذلك بكل عنفوان قاهر لا أستطيع تحمله أو ردعه حتى، أتعلم لماذا؟!

لأنه يُشعلني مثل قطعة ذهب تُصهر ويعاد تشكيلها من جديد بأجمل الزخرفات الشرقية، أنت تقتحم قلبي و تصرخ في أذن الأنثى في داخلي كي تستيقظ و تعود إلى الحياة، أعشقك وأحبك وكم أتورط بك يوماً بعد الآخر ولهذا أريد لقاءك ليكتمل جنوني معك وأعلن عن نفسي أمام الجميع: "أنا تلك المجنونة التي أرسلت بكلماتٍ بسيطة إلى شابٍ استثنائي، فكانت السبب بحدوث معجزة كبرى جعلتهُ يغربلُ نفسه أمامي ويَمزج روحي معه للأبد.

- أنتِ لغزٌ شَرقي يَستحق الفَخر عند مُجابهته.

تصبح على صباحٍ مُعطر برائحة أنفاسي المُشتاقة لالتهام شفتيك بجنونٍ يُشبه جنون قَلبي الآن، صباح يأتيك بهِ حلمُ يقظة يَحملني إلى سريرك لكي أشتمَّ رقبتك المُقّدسة وأرحل.

انتهت من كلماتها وأنا أراقب عينيها الحَزينة، وبدأتُ التكلم دون تَخطيط بل كنت أريدُ فقط أن أنقذ تلك العيون من حُزنها وشوقها:

- أتعلمين.. بمثل المنطلق الذي ينقصه الاتزان الذي دعاني ودعاكِ لبناء عالم من الفضائل والرذائل، وقصرٌ من العشق عالي الأسوار بما يليق بحبي وجنوني سوف أعيد الكرة لكي أحطم هذا القصر.

خيّم عليها لحظات من صمت مَرير وحُطِّمت آمالها ووجدانها البريء، ابتعدت عن الكاميرا في الحاسب للوراء وقد امتلأت عينيها السوداوين بالدموع الحارقة مثل لهب الجحيم، لم تَصل دموعها إلى شفتاها الصغيرتان حتى أكملتُ كلامي:

- نعم أنا الملكُ والعبدُ والوزير سوف أعلنُ الثورة لأحطِّم هذا القصر وأعيد بناءه في واقعٍ مَلموس معك أنتِ، واقع أشعرُ به بنبرة صوتك وهي تنادي حروف اسمي على حقيقتها، نعم معك في المغرب وبين أشجار النخيل وتراثِ البلاد العظيمة التي احتوت منقذتي كل هذه السنين، سوف آتي إليكِ وأكون أوَّل من مارس الجنون في حقك، إنه فخري الأعظم أن أركع أمام خليفة الآلهة فينوس وأقول لها كم أحبها.

تحولت تلك الدموع من جحيم لاذع إلى رحيق رائع يلمع بعينيها وكأنه سحر الجنّة، حتى طعمه المالح قد خالف أسس العلوم لكي يتحول قَطراً ينتشي به متذوقه ويصل لأعلى درجات الخلود، امتزجت دموعها مع ابتسامتها وصوتها الخفيف وهي تقول أحبك وتنظر إليّ بأمل.

علمتُ حينها عندما نحصل على ذاتنا سوف يتحول العالم من غرفة معتمة موبوءة بلعنات الشياطين إلى جنّة منعمة بأنغام الملائكة، هي تلك اللحظة التي وجدت ياسمين نفسها بها وهي تَسمع وعدي بالقدوم إليها:

- أحبك ولكن "كانت تُريد إخباري بما يَجب أن أعلمه منذُ البداية".

كمّ أعشقك وكمّ أكره نفسي وحتى أحتقرها على ما أقترف تَسرعي، أكرهُ ذلك الشيطان الملائكيّ الضي دعاني لأرسل لك رسالتي وأكون بما بهِ أنا الآن من بهجةٍ وبهتان، أكرهُ ما أقترف هروبي ووما أقترف قلبي الأبله الذي أحبك في غضون هذا المحيط القاسي الذي لا يتقبل تبريرات وجداني المكسور من مرضٍ مؤلم، ما قدمته لي في يومين وكأنَّه صرخة كونيَّة مفعمة بالوله لحدِّ الصرع أكثر من صرعي نفسه!.

أنت جيش من الكلمات اقتحمني وغرز علمَ شِعرك في صدري ليعلن الانتصار، وأنت ذا انتصرت واستعمرتني وتورطت معك لحدّ الخضوع، لحد الركوع أمامك والمُساومة بكل ما أملك، ولهذا أريدُ أن أساوم المُحتل الذي استعمرني أن يُعلي الأنثى بداخلي ويتوِّجها على عرش الآلهة، هل تتخيل ما أعيش به؟

ماذا تريد؟! أن تكتب حروف اسمك في تاريخي بحبرٍ لا يجف؟ لك ذلك.

أن تَقتلع تاريخي من أجل أن أبدأ معك من جَديد!؟ لك ذلك.

وخَرجت آخر الكلمات من شفتيها وهيّ تَبكي وتَنظر للأرض ويداها على جبينها تَعتصره بشدَّة، رَمت كلماتها عَن الصَرع والمَرض ثم بدأت بالتأويل لكي تَهرب ممّا بدأت به ولكنها فَشلت، علمت حينها أن شيئاً مُريباً يقف خلف دموعها وقلت:

- تَكلمي ياسمين، إني أستمعُ.. وأعدك بأن أستمع للنهاية، وأعدك أن أعيدَ الاستماع في المرة القادمة وأنا أتلاعبُ بخصالِ شعرك.

- يمان افهمني، لستُ أنانية بل مُجرد غَبية حمقاء لَم تَعلم أن الأمور سوف تصل إلى هذا الحدّ، لكني قسماً بألمي وأحزانك إني صادقة بكل كلمة قُلتها لك.

وعادت للبكاء ومَع كُلِّ دَمعةٍ تَسقط يَسقط قَلبي معها، خائف مُحتار ولا أعلم ما خَلف تلك الدموع، استجمعت ركازة صوتي وقلت لها:

- تَكلمي ياسمين..

أنا مُصابة بالصرع يمان، لا أضمن أن أكون مَعك دائماً، لا أضمن أنني سوف أشفى، إصابتي بالصّرع أسوأ بقليل مما تَتخيل، أنا مُصابة بالصّرع منذ طفولتي ومرّت عليّ أيام يائسة بين جدران المشفى، ولكيّ أهون عَليك وأختصر لك الكارثة بكلماتٍ مختصرة، أنا قَبل مدّة ليست بطويلة استيقظتُ مِن غيبوبة أسرتني لمدّة، أصابتني تلك الغيبوبة نتيجة نوبات الصَرع المُتكررة منذ طفولتي، وأخذتُ نَصيبي من الألم وخاصة بعدما استيقظت.

أنهت ياسمين كلامها وهي ما زالت تَضع يديها على جبينها وتنظر إلى الأسفل، تَمنيّت أن أضّمها في تلك اللحظة، وعندما نَطقت باسمها رَفعت عيناها إلى الشاشة ورأت ابتسامتي وقرأت الطمأنينة بملامح وجهي وابتسمت لي، عَلمت حينها أني سأبقى عند وعدي، عَلمت أني طريق نجاتها وشفاءها وسعادتها، مَسحت دموعها وأكملت كلامها:

- يمان.. أنا كنت مُرتبطة مع شاب مَغربي قَبل أن تصيبني آخر نوبة من الصَرع وكان هو السبب بتلك النوبة، عانيت منه الذكورية والقَمع والابتزاز بكل الأشكال، كنتُ امرأة تعيش في مُجتمع متطرف، ضَعيفة وخاصة بعدما فَقدتُ سَندي في هذه الحياة، يمان أبي قَد رحل بعد أن عُدت من دمشق وتَغير كُل شيء حَتى أخي قَد أصبح ذا سلطة قَمعية عليّ، كنتُ أتوق إلى الحرية مثل قبل ولكنّي خائفة، وفي أوّل لحظة من ثورتي في وجه ذكوريته المَقيتة خَرج الذكوريّ المُتطرف من داخله، قال لي أنت امرأة لا تَتدخلين وكأن كلمة امرأة أهانةٌ بحدِ ذاتها، وما إلى ذلك من تفاهات المُجتمع في وجه الأفكار النسوّية، كُنت حينها أدافع عَن اختي التي قُمعت وحُرمت من دراستها وجامعتها بسبب أفكاره المُتخلفة، قَد حكم عليها بالطاعة في المنزل لأنها لَم تَنفصل عن شاب تَعشقه في الجامعة، وهذا يُمثّل لي الكثير من الألم وخاصة أن من قام بقمعها هو من أحبّه بتلك الفترة، بدأت حينها أتخيل كمّ النفاق الذي يعاني منه، كمّ الازدواجية المَقيتة التي تَنتابُ أفكاره الحمقاء، وبدأ الأمر من هنا، من أني قَررت أن من يَقمع أخته لفعل هو يَفعله مَعي لا يَستحقُّني، ولكنَّ الأمر لم يتوقف عند هذا الحدّ يا يمان بَل ابتزّني بكل الخصوصيات التي كانت بيننا، صوري وتسجيلات صوتية خاصة وحتى طموحي في الوصول إلى حلمي في الخوض في

إحدى المسرحيّات التي يُنظمها مَع معارفه، ابتزني بكل شيء، ولأن أخي الذي تربى مع أمي بعيدًا عنّي وعن أبي، ذكوريّ مثله، مُختّل وبغيض مثله وكان ذلك يُشكل تهديداً لي بشكلٍ قاسٍ، أسوأ ما في الأمر أني وثقت به، أحببته وعشتُ معه كُل تفاصيلي، كنتُ حمقاء لدرجة أن بَعض الكلمات جَرّتني نحوه دون تَفكير، وبَنيت أملاً كَبيراً على وعوده لي بأن أشارك في المسرح المغربيّ بدورٍ بطوليّ في أحد الأيام، وهو كانَ أملي الوحيد بأن أحقق ذاتي وكان يَستطيع أن يَعطيني فرصتي لأنه مُنتج ومروّج مَسرحي له معارفه ووصوله للجميع وهو من جعلني أشارك بذاك الدور في دمشق أيضاً، ولكنه في أول لحظة عارضته وخيّرته بيني وبين أفكاره الذكورية وقمعه لأخته قد ابتزني بكلّ شيء وحتى طموحي معه!.. وأنا كنتُ وحيدة لا أخ يَدعمني ولا صديق يَسندني ولا حتى أمٌّ تَتفهمني ولا حتى..

توقفت ياسمين عن الكلام وملأت الدموع عينيها من جديد ثم نَطقت حَرفين فيهما كُل الألم.

ولا حتى أب يا يمان ولا حتى أب.

أبي كان رجلاً مُثقَّفاً مثلك، حَزيناً مثلك، لَم يمتلك فرصته مثلك، صادقاً وجميلاً ومُتفهماً مثلك، وأنا أحببتك لأني رأيت أبي فيك، عَشقت عقلك وثقافتك لأني شَعرت أن روح أبي تَسكنك، أحتاجُ أن يعود لي يا يمان، أريده كما أريدك بشدة.

ما يُمثل تلك اللحظات كانْ مثل نَغمة عودٍ حَزينة، والأوتار تَهتزُ مَع ألمي، والنَغمات تَغمرني شوقاً وأنا بين الأوتار ضائع حائر أبحثُ عَن نَغمةٍ توصلني إلى صَدر ياسمين كي أضمها إلى أعماقي وأطرد حُزنها بعيداً، أكملت ياسمين قصتها وبدأت ابتسامة ساخرة تَرتسم على شفتيها:

بَعد ذلك الضَغط أصابتني نوبة الصَرع ولكن لَيست النوبةَ القاضية، بل أنهكت جَسّدي لبعضِ الساعات فَقط واستيقظتُ واسترجعتُ قواي لكي أجد رسالة من ذاك الشاب يَقول فيها:

"أنتظرك في شَقَّتي يا عزيزتي لكي أعتذر منك على طَريقتي، هيَّا لا تتأخري عليّ لأني يبدو أني كنتُ مخطئاً بشأنك، صحيح يجب أن تَشكري الدكتور عَبد القادر صديقي الحَميم والمُخرج أسعد عبدالملك لأنهم أقنعوني كم أنتِ إنسانة تَستحق الجهد للبقاءِ مَعها".

بَقيت تلك الابتسامة الساخرة على وجهِ ياسمين وهي تنظر لي بحزن، أخبرتها أني لَم أفهم ما المَقصود من الرسالة وأكملت لي سَبب نوبتها الثانية، أو نوبة الصَرع القاضية كما كانت تصفها:

كان يَبتزني يا يمان بمعارفه، الدكتور عبد القادر هو دكتور في جامعتي وبيني وبينه بعضُ المشاكل وموادي للنجاح في السنة الثالثة مُتعلقة باختصاصه، والمُخرج أسعد هو رجل ثلاثينيّ نَجح في مجاله وهو يبني نفسه من خلال المواهب الشابَّة الغير معروفة بَعد، وكان ذكره هو دلالة أن المُخرج أسعد لَن يخالفه في أي أمر لأنه الداعم والمُنتج الأساسي لكلِّ أعماله، ببساطة يّمان إنه

يَبتزني ويتاجر بطموحي ليحصل على جسدي وهذا أصعب ما يُمكن أن تَمّر به المرأة، وهنا كانت نوبة الصّرع القاضية لكي أقضي ساعاتي بين جدران المَشفى في غيبوبة لا أدرك مُدَّتها.

وعندما استيقظت عَلمت أن الإشاعات في الجامعة تَقول أنّي حامل من ذلك الشاب وبسبب صَدمتي قَد انتابتني سلسلة نوبات من الصَرع أدت إلى الغيبوبة الثانية، وهو مَن صَنع تلك الإشاعة بطريقة غير مُباشرة لكيّ يبرأ نَفسه ويتهمني بتوريطه من أجل أن أحقق نَفسي من خلال شُهرته، وكُل هذا ما زال يُلاحقني، وهذا أيضاً ما زاد ذكوريَّة أخي أكثر وأكثر ليصبح متطرفاً بمعنى الكلمة بدلاً من أن يدعمني في محنتي، وهو يَخنقني إلى اليوم ولا أحد يرده عني.

وعندما توقفت كلماتها المجبولة بالحزن عن الخروج من شفاتيها المُرتجفة، قُلت:

- يؤلمني قَلبي لسماع كُل ما قُلتيه؟ وبكلِّ الأحوال لن أهوّن عليكي بالكلمات بل سوف نَكتب هذا التاريخ أنا وأنتِ تَحت شَجرة نَخيل في أحد شوارع تطوان في المغرب ومن ثم نَحرق ما كتبنا لكي نبدأ بكتابة روايتنا وعشقنا ونَدفنُ يأسنا سوياً.. أعدك أن كُل شيء سوف يَتغيَّر ملاكي.

أحبك، وأنتظرك.

أنهيتُ مكاملتي مَع ياسمين وأودعت وعودي معها وذَهبتُ إلى فراشي وأنا مَخبول من شدة الشعور وبإدراكِ ما حَلّ بها، أغمضت عينيّ وصورتها مُثبتة بَين

جفوني المُنهكة واستسلمت لتِلك اللوجة واتجهتُ نحو أحلامي لَعلّني ألتقي بها بعالمٍ موازيّ يَكسرُ البعد ويحققُ رغبتنا.

[V]

لَـم تكـن الخيـارات أمامـي كَثيـرة أمـام وعـودي ولهـذا عمـدتُ أن أسـافر نحـو المغـرب فـي أقـرب وقـت محـاولاً أن أهيِّـئ نَفسـي وأطـرح ضوضـاء أفـكاري أرضـاً لأتوقـف عـن التَفكيـر بمحيطـي وعائلتـي وزوجتـي فـي دمشـق. اسـتبدلت إجازتـي المُقـرّرة بَعـد شـهرٍ ونصـف مـن تاريـخ اليـوم لأذهـب بهـا إلى المَغـرب بـدل الذهـاب إلى سـوريا، والجَّيـد فـي الموضـوع أن أحوالـي الماديّـة كانـت مُمتـازة فـي تلـك الفَتـرة لكـي أسـافر لمـدة أسـبوع إلـى ياسـمين عـن طَريـق حجـز فُندقـي سـياحي يُقـدم للسـوريين، بدأنـا بالتخطيـط وتَجهيـز الأمـور مـن كَـرت الزيـارة والحَجـز السـياحي للسّـفر وكُلنـا بَهجـة وحمـاس للحظـة اللقـاء ولـم يَطـل الأمـر حتـى تَجهـزت كُل الأمـور ولَـم يتبـقَ سـوى السّـفر والمواجهـة الحَتميّـة التـي سـوف تَحـدّد كل شـيء.

بـدأت فـي تَجهيـز أمتعتـي ولحظـات الجنـون تَتحكـم بـي والعشـق يقودنـي وأنـا مثـلِ فـارسٍ أقسـمَ بشـرفه على طاعـةِ ذلـك الجنـون، أرى الكـون مـن منظـور مُندفـع، مُندفـع نحـو تحقيـق اللقـاء السَـرمديّ وأتصـرف بطريقـة لاإراديـة وأتهـرب مـن التفكيـر ومـن الشـكوك والحسّـبان، أرى العالـم ظُلّمـة داكنـة اللـون تتوسـطها لحظـة مُشـرقة بأقصـى درجـات النُّصـوع، هـيّ اللحظـةُ التـي سـوفَ اَغمـرُ بهـا تلـك السـمراء بـكل جَسـدي لأوقّـع معهـا مُعاهـدة الوعـد الباقـي.

بـدأت أحـزم أمتعتـي و علـى رأسـها دفتـر ذكرياتـي، هـو أهـم مـا أملـك، هـو أرشـيفي و بئـر أفـكاري، إنـه يليـق أن يكـون خَليـل روحـي وشَـريكي فـي كل شـيء فقـد كان بوتقّـة رذائلي ومُسّـكن آلامـي، وَضعتـه بيـن ملابسـي الأنيقـة وأشـيائي المُميـزة

وهدايا فاتنتي، وأهم الهدايا كانت ثلاثُ روايات إحداها لواسيني الأعرج اسمها "شرفات بحر الشّمال" يَصف بها قصة مشاعرنا ويقول فيها:

أحياناً أشعر أنَّه من فرط حبنا للحياة نتركها تنسحب من أيدينا كحبات الرمل، معلَّقين بشغف بين لحظتين محكوم عليهما قسراً بالموت الأكيد، اللحظة الأولى عندما نلتقي ويكون للحب سحر الاكتشاف والإحساس بالديمومة، فيأتي العشق حاراً، واللحظة الثانية عندما نهُم بالافتراق والإحساس بالخسران، لليلة الأخيرة دائماً مذاق الفقدان، مثل الأولى تماماً، الهوة التي تعقب ذلك، كثيراً ما يصعب ترميمها، نلتصق بكل التفاصيل الصغيرة لحفظها وفي الصباح عندما نستيقظ، وقبل أن نتحسَّس سعادتنا الطارئة، تكون مدارج المطارات قد سحبتنا نحوها ومكبّرات الصوت في المطارات تختصر علينا همّ التفكير، يبدو أننا نمضي العمر بين لحظتين تتكرران باستمرار، صرخة الولادة وشهقة الموت وعيوننا ما تزال مفتوحة على الدهشة، لماذا يحدث هذا لنا نحن فقط..؟

كانت ياسمين تَعشق هذا الكاتب وتَعشق روايته "طوق الياسمين"، والكتاب الثاني كان مذكرات آنا غريغوفينا زوجة الروائي دوستويفيسكي، كان ذلك الكتاب يُمثّل شغفي مَع ياسمين، كنتُ أعشق أن تَصفني دوماً، كنتُ أتمنى أن أعشقْ فتاةً تقرأ فعندما أرسمُ فتاة أحلامي لابد من وجود كتابٍ بين يديها، الفتاةُ التي تقرأ تعلمُ معنى الحب، معنى الحياة، تعلم أن السّفر على أجنحة الحرية واجب علينا، تعلمُ أنها أكثر من امرأة بل أنها أحد الأسرار الكونية، أحدُ الآلهة المُتخفية بين ثنايا الفلسفة، فهكذا تتكون في خيالي الفتاة التي تقرأ، ولأكون صريحاً، الأمر لا يَخلو من بعضِ الأنانيةِ والغرور، المرأة عندما تقرأ لربما سوف

تَكتب لي الغَزل بأبهى خواطره الأدبية، تَصفني كما أستحق أنا لأشعر بوجودي في هذا العالم قَبل أن.. قَبل أن تَرحل، فجميعها راحلون..

والكتاب الثالث كان للدكتورة نوال السعداوي باسم "معركة جَديدة في قضية المرأة"، كانت العَظيمة نوال السعداوي تُذكرني بثورة ياسمين، بثقافتها تميزها وتَمثيلها للمرأة القويّة التي سوف تُغير المُجتمع وتُنهي سُلطة الكاهنِ وامتلاكه للسوط.

في تلك الأثناء كان يجب عليّ أن أقدِّم تبريرات السفر أمام زوجتي، لَم أكن أرجِّح فكرة أن أخبرها بتفاصيل قراري النهائي بشأن علاقتنا قَبل أن ألتقي بياسمين، كنتُ أخاف أن أخضع كما خضعتُ سابقاً وأخاف من اضطرابها النفسي في التَّملك لو كانَ الثَمن الانتحار، بقدر ما كنتُ أشعر أني حقير لحدٍّ ما كنتُ أشعر أنّي مَخنوق مظلوم أحتاج أن أخرج من سجنٍ أنهكني وسوف يُنهك وجودي طالما أنا في داخله، قراري سوف يُعلن عاجلاً أم أجلاً.

وجَرى الأمر على النحو التالي:

- ماري كيف حالك، لديَّ القليل من الأخبار السيئة لك، قَدّري ذلك وارحميني من التساؤلات التي أتوقعها منك، يوجد مَعرض كتاب تَشترك به دار نشر الفُرات التي أعمل بها هنا وصاحب العَمل لديه بَعض الظروف التي سوف تَمنعه من السّفر إلى معرض الكتاب في المغرب ولهذا أوكلني في الأمر، يبدو أنها فرصة تجارية مناسبة بالنسبة لي لأني سوف أحصل على حصة لا بأس بها إذا تمّ الأمر على أكمل وجه، سوف أتوجه إلى هناك بعد بضعة أيام بواسطة

حجز فندقي يدفع نفقاته صاحب العمل هنا، أعلم أنّي قدَّمت لك وعداً عن العودة في إجازة إلى دمشق في الفترة الحالية، لكن يجب أن نُؤجّل تلك الإجازة في الوقت الراهن.. أفعل ذلك أجل التَخلص من شبح الغُربة، كما أتيت إلى هنا لأجلك، لأتخلصَ من شبحٍ تَجسَّدَ بكِ، هل تَذكرين ذلك! أتمنى أن تقدري ذلك.

وكُنت أتقتصَّدُ تَذكيرها بالواقع الذي تُحاول أن تتناساه محاولاً تَبرير قراري الذي سوف تَسمع به بعد بضع أيام.

– السفر إلى المغرب –

منذ لحظة إقلاع الطائرة المُحَّملة بالأجانب والمغربيين حتى لحظة هبوطها كان مَزيجٌ من الأفكار يُهيم أجواء السماء ويترنّح بي بين قصائد الغزل وتَخطيطات اللقاء، تلمع عيناي أمام الغيوم الشاسعة وينطلق عنان الشوق في داخلي ليرسم صورة ياسمين بين تفاصيل السُحب وهي تبتسم، إني مسافر إلى الجنَّة وأمرُ عبر مقتطفاتٍ من الحياة الفانية حَتى أصل في لحظة أو أخرى إلى ذلك الفردوس المَغربيّ وأرى ملاكي يغوص في خلايا جسدي ويطبع كلماته على مسمعي ليُثبّت أنغام صوته في ذاكرتي إلى الأبد.

كان بجانبي رجل عجوز مُلتحٍ، قَصير القامة، أجعدُ البشرة، ذو عينين بارزتين لكنَّه طيب الملامح وحكيم التعابير، التفت إليّ بعد قضاء منتصف وقت الرحلة

بينما كان جميع الركاب نائمين مستمتعين بأحلامهم وأنا أنظرُ نحو الغيوم وأعيش أحلام اليقظة، قال لي بصوتٍ يملؤه الاحترام:

- أراك حالماً مُنفتح العينين بأمل، متأثراً بالغيوم بشغف وهذا من فترة تتجاوز الثلاث ساعات، و كما تَفرض عليّ خبرتي القصيرة في هذه الحياة أنك تغوص في مغامرة استثنائيّة تحكم عليك بشرود الذهن كلَّ هذه الفترة دون ملل ولا كلل. "توقف العجوز قليلاً عن الكلام وهو ينتظر مُبادرتي بالحديث ولكن لا أحد هناك، وأنهى كلامه ب "أتمنى لك أن تنال نهاية سعيدة لمغامرتك، كما يبدو أنك تملك من الحماسة ما يكفي لكي تبقى بحالة تأهب للوصول حتى لو امتدّت الرحلة لسنين عدّة" وهنا تكلمت:

- فعلاً إنّي مُستعد أن أنتظر سنين في هذا المَقعد المُمّل أمام الغيوم ولوحات الآلهة الفنية في السماء، قلت له بعد أن التفتُّ للتدقيق بعينيه البارزتين كنوعٍ من الإعجاب بتفسيره لحالتي النفسية.

- ليبارك الله رحلتك و لينعم عليك بحكمته ويكون سانداً لك في عثرتك، قل آمين يا بنيّ.

كانت تتضح من تفاصيل كلامه ولباسه أنه رجل طيب جداً مُسلم متدين، لكن هل كان سوف يردد نَفس الكلمات لو أنه علم أن الشاب الذي يَحلم هنا أمام السماء هو مسيحيّ يتجه للقاء فتاة مُسلمة ومن المُحتمل أن يتجاوزا حدود الدين والتَشريع والمجتمع الذي يحكمهم! نظرت له وقلت آمين أيها الرجل الطيب آمين كما تريد، وابتسمت له ابتسامة ودودة وعدت لأكمل أحلام اليقظة.

في الحقيقة كنت أرى الله بمنظور مُحايد خارج الحدود النمطية التي يراه بها المجتمع: بل هو الجمال المكنون في قلوبنا، تأثرت جداً بفلسفة جلال الدين الرومي التصوفية، قرأت بعض كتبه و حفرت بثقافتي عباراته الفلسفية وحبّه لله وأخيه الإنسان لأنه إنسان فَقط، وكان أكثر ما يَعنيني بالفلسفات التَصوفية هو كتاب "التصوف منقذو الآلهة للفيلسوف نيكوس كازنتزاكيس" هو الكتاب الوحيد الذي نال اهتمامي بالقراءة ثلاث مرات مُتتالية، كتاب من مئة صَفحة يَحمل فَلسفة الحياة الأروع، تلك النظرة الفلسفية لرسم حدود الذات الآلهية كانت مَصدر اهتمامي لشهورٍ عدّة وربما ما تجاوزت السنة والنصف "البحث عن الله" عنوان يحولك من عبد بتقديسٍ كامل إلى حُرٍ بعقلٍ كامل، وكما قال إينشتاين: يجب أن نَحترم المُعتقدات ولكن من الإجرام بحق أنفسنا أن نَحترم تَقديسها، كان يَقصد بذلك تَرك حدود الفكر والحب مَفتوحة دون تقديسٍ كامل يَفرض عليها الكتمان على عكس المعاني الهجومية التي ناله بها الجميع، وهكذا انطلقت نحو الفلسفة لأكون إنساناً يبحث عن نفسه وعن وجوده في هذا العالم دون حدود مُقدّسة غير الإنسان وحريته والحُبّ والسلام، وكما كنت أردد دائماً في حواراتي: لن يغضب الله مني لأنّي أبحث، إنّي أبحث بصدق وشغف.. لو أرادنا مُجرد كائنات تولد وتأكل وتموت وتتعبد لما ترك لنا هذه الفلسفة الكونية كي نغوص بها وندرك متعتها السامية، لن يغضب مني إذا انطلقت نحو ما بعد الكون، إلى ما هو أعمق من حواسي الخمس، بل الله جزء مني كما أنا جزء منه، إنه يشعر بالفخر عندما أبحث عنه كما أشعر أنا بالفخر عندما أقترب منه.

وصلت إلى مَطار طنجة المُسَّمى "ابن بطوطة" في المَغرب وهو من أقرب المطارات إلى تطوان مَدينة ياسمين.. كان المطار مُميزاً برسم هَندسي عظيم من

الداخل على شكل أقواس مُتتالية مثل سرداب كبير يَعكس ضوء الشّمس بين قناطره المطليّة باللون الخشبيّ وأرضيته الحمراء، وكان تصميمه متشابكاً ودقيقاً بشكل لافت، والبناء من الخارج أبيض اللون ذو تصميم هندسي ضخم جداً، كنت أسارع في نقل أمتعتي إلى فندق المِنداري في تطوان الذي حجزت فيه غرفة صغيرة للإقامة، أركض مسابقاً الزمن بنوعٍ من الجُنون وكأني إذا تباطأت سوف أفقدها، وكلَّما تسارعت في حركتي سوف يحين موعد اللقاء بشكل أقرب، مع أننا لم نحدد موعد لقائنا بعد لكنَّه الجّنون كالعادة، كانت المغرب تُحفة فنيّة بهواءٍ نَقيّ مُزينة بأشجارِ النَخيل التي تصطفُّ على جوانب الشارع، بطريقي رأيت بَحر المغرب ولنقاءِ أجوائه وضعته في أولوياتِ زياراتي أنا وياسمين لأبحر معها بمشاعرنا إلى الشمس الغاربة ونعود من جديد.

وصلت للفندق عند بزوغِ الفجر وكان يرافقني من التعب والأرهاق بقدر ما ترافقني نيران الشوق للقاء عَشيقتي السمراء، أجريت مُحادثة التهنئة بوصولي بالسلامة مع ياسمين:

- ألو فاتنتي!

أهلاً بالمُجرم.. قالتها ياسمين بلهجة ساخرة وتداركتُ أنَّ ثمة القليلُ من دلع النساء وراء تلك التُهمةِ الخَطيرة، وعندما أعدتُ كلمتها باستغراب وضّحت لي أن الجلوسّ تسع ساعات أمام الهاتف يعدُّ جَريمةً وكانت تَقصد التَحدُّث عن نفسها. اعتذرت لها وبيّنت أني لَم أستطيع الاتصال بها قَبل الآن بسبب عَدم وجود الشَبكة على خَطي الكويتي وعدم وجود رقمها لأن جهازي فَرغ من شحن بطاريته، وبادلتني اعتذارها لأنها لَم تستطيع استقبالي في المطار وأنهيت اتصالي

بكلمات التَعبير عن الحُب وأستغرقتُ في النوم آخذاً معي حماسي للقاء الأول.. امتدّ ذلك حتى السابعة مساء واستيقظت وأنا أتدارك زوايا غرفتي و إلى أين وصل بي الجنون، بالأمس كنتُ في الكويت واليوم أنا أبعد آلاف الكيلومترات، قَبل أشهر كنت رجلاً مَكسوراً مَخبولاً أكره النوم لأني أكره أن أستيقظ بهذه الحياة المُزعجة، واليوم أكره النوم لأني أريد أن أبقى مُستيقظاً أمام عينيها، إنها مدينةُ الفضيلة، إنه اللقاء السّرمديّ.

- اتصلت بها لأحدّد موعد اللقاء الأول ورسمت في خيالي رجفة جسدها عندما سألمسها، رَسمت كيف ستكون نظرتها الأولى وكيف سوف تُزخرف بسمتها وجهها الملائكيّ كلما اقترب الوقت، حرارة أنفاسها تجذبني قبل أن أراها، وكلّي إيمان بأن يتسارع الوقت ونوصد أبواب الشوق أمام أعين بعضنا.

كان موعدنا في الساعة الثامنة والنصف في مطعم في وسط المدينة، ومرت الدقائق مُتباطئة إلى حدّ الضّجر حتى حان الموعد وخَرجتُ من الفندق نحو أول سيارة أجرة كي توصلني نحو الجنة، وصلت إلى المَطعم بملابسي الأنيقة واتزاني، ممشوق القامة وعينيّ العسليتين تَضجّان بتراتيل الحنين، كان يملؤهما ترانيم تَشبه ترانيم المتصوفين في أوجّ تَقربّهم إلى الربّ، وهكذا احتلّينا الواقع وحطمنا أسوار الجنون لنرقص على أنغامٍ تُطلقها دقاتُ قلوبنا.

مضى الوقت ببطء لا يحتمله عاشق مُتهاوي مثلي وكأن الزمن توقف هنا، وأصبحت قدرتي على الانتظار تتحطّم شيئاً فشيئاً، وبتلك اللحظات بدأت أفكر أنه مخطئٌ من قال أنّ هدوء ما قبل العاصفة جميل، بل هو مخيف ويُشعِرُك بارتباك خطواتك، حتى أنك تسمع بخيالك أصوات عقرب الثواني وهو يتحرّك..

وأنا أنتظر وأردّد متأملاً: اهدأ لعلّ عاصفة العشق تحمل معنىً آخر، معنى أكثر رعباً وقسوة لكن على عكسِ كُل العواصف، إنها ليست نهاية شيء بل بداية كل شيء، وإذا كان لابدَّ لها من أن تنهي شيئاً ما بداخلنا، فإنها سوف تنهي آلامنا ووحدتنا.. قاطعت أفكاري فكرة تَصِف ارتباكي، أعتقد أنّي سوف أعلن جنوني وأصرخ "أين أنتِ".

لكن سرعان ما أنقذتني ودخلت المطعم بكل هدوء، كانت رائعة مثل إشراقة شمس، رشيقة الجسد ذات شعر أسود مفرود، عيناها خجولتان ولا تَنظر أمامها حتى تَنخفض من جديد، ووجه ملائكي ذو شفتين مُغريتين لحدِّ الانتحار في سبيل الوصول إليهما بقناعة كاملة، كانت تَقترب نحوي لكن أقسم بآلهتي أن قدميّ مَن قادتني لها دون شعور، ويديّ من ضمتها دون إرادةٍ منّي، وشفتايّ لَمعتا باسمها دون قرارٍ مني، وأقسم بآلهتي مرّةً آخرى أنّي أشعرُ أنها الجنّة التي لَم يصفها البشّرُ بَعد، وصلنا للطاولة المُغطّاة باللّون الأحمر وبعض ورود الياسمين البيضاء التي طلبتها لتشهد لقاءنا الأول، ليتنا نستطيع أن نحفر اسمينا على تلك الطاولة مثل أطفال المدارس لتخلّد ذكرانا للأبد، ولأننا لا نَستطيع أخذ كُل منا وردة بيضاء من ورود الياسمين التي طلبتها لترافقه كُل حياته.

وبدلاً من أن استقبلها بقصيدةٍ استقبلتها بِبضع كلمات تَصفُ كُلَّ شيء:

"أنتِ،

وصرخةُ الولادة،

وشهقةُ المَوت،

فلسفةُ حياة"

قالـت بَعـد أن انهـت ابتسـامتها: كأننـي ولـدت مـن جديـد عندمـا رأيتـك أيهـا المَغـرور، أعشـقك..

ولكنّـي لـم أجـب، كلماتـي سـوف تَسـتهلك منّـي تَركيـزي فـي عينيهـا وتُفسـد متعـة تلـك اللوحـة الفنيّـة المَرسـومة بَيـن الحاجـبِ والآخـر.. لَـم أشـعر نَفسـي جميـلاً يومـاً قَبـل أن أرى صورتـي المُنعكسـة فـي عينيهـا. تَحدثـت ياسـمين مـن جديـد:

هل سوف نبقى نعيش بتلك الأجواء الصامتة مدة طويلة؟

قُلت لها: - كفّي عَن الكلام قليلاً وقَدرّي شعوري.

- حسناً وما بك أيها الذكوريّ الذي تَفرضُ عليّ الصَمت؟

- أنـا أيتهـا الثائـرة أشـعر بالتعـب والعَتـب فـي آنٍ واحـد، العَتّـب لأن هـذه الحيـاة قصيـرة جـداً ولـن تكفينـي لكـي أرتـوي مـن جمالـك بمـا يُرضينـي.

- والتعـب!.. كانـت تَقـول ذلـك وهـي تَرسـم بحاجبيهـا حَركـةً بَريئـة تُشـبه الأطفـال مـع ابتسـامة صادقـة.

_التَعـب مـن دَقـات قَلبـي التـي لَـم تهـدأ بَعـد، هَـل يوجـد مشـفى قَريـب ؟ ..اذهبي وأخبريهـم أن هنـاك شـاب أصابـه سَـهم عشـقي و هـو بحالـةٍ خَطـرة، وأخبريهـم أنـيّ سـائح فـي بـلادك لربمـا يَهتمـون أكثـر.

زادت الابتسـامة فـي ملامـحِ وجههـا وأكملـت بصـوتٍ خَجـول: أيهـا المُصـاب، أعشـقك.

كنتُ أتمنى أن تستمر تلكَ اللحظات إلى الأبد وإذا ما أصرت أن تَنتهي فلتَنتهي هي والكون والبشر ومجرّتنا في لحظةٍ واحدة كما وُجِدوا في لحظةٍ واحدة، أتمنى أن يبدأ الانسحاقُ الكبير من هُنا، أستطيع أن أقول أنها عالمي وتَرتيبُ الذرات بها مُدهش، عالمي الذي بنيته من نسج الخيال وأنا أرافق سيجارتي وكأس خَمري وتحَّول إلى واقع في لحظة لا أستطيعُ تَفسيرها.

ومضت السهرة بأمواج الغزل، تأرجحنا بين دهاليز العشق، تفوح منها رائحة اللهفة ليقدم أحدنا قبلةً تُشفي غليل الآخر، تلك القبلة التي يتمناها جميع العشاق ولكن يَكتمون أعماقهم خوفاً من شيءٍ ما.. لكن ربمّا لمسةُ يد تَدمج حرارةَ قلوبنا المشتعلة تَفي بالغرض ولهذا حَصلنا عليها خوفاً من أن تَغدر الدنيا أحدنا ونَرحل دون أن تُشابك أيدينا بَعضها، تبادلنا الحديث عن تفاصيل السفر وجمال المَغرب مع بعض التخطيطات للجولة السياحية التي سوف نقوم بها.. وعلى عكس وقت الانتظار بدأت الدقائق تسير بسرعة دون أن نلحق بها لنُشبع رغبتنا بالبقاء في سَهرتنا في أضواء المَطعم الرومانسيّة، رحلنا من المطعم في نَفس التكسي حتى الفُندق وكان افتراقنا الأول بعد لقائنا الأول، وأكملت الطريق ياسمين نحو مَنزلها، اتجه كل منّا إلى فراشه لكي يَتأمل كل لحظة مرّت علينا بعمقٍ عندما مارسنا الحياة داخل الحياة قَبل الافتراق، عندما تُغمَض الأعين و يبدأ القلب يتسارع في دقاته مع كل ذكرى حصلت في يومٍ مُميز هي رواية قصيرة يعيشها كُلُّ إنسان فوق وسادته.

آويتُ إلى فراشي وملأته بحرارة جسمي الذي لَم يهدأ بعد من رَجفته، كان الهدوء يسيطر على الأجواء الباردة و خيوط المطر تضرب زجاج الغرفة بهدوء

كأن الكـون لا يريـد أن يُعكـر أجوائـي وأحلامـي المُتيّمـة، لكـن هنـاك مَـن حَطَّـم كل شـيء، ذلـك الصـوت فـي داخلـي! صـوت يشـبه ضـرب السـيوف ببعضهـا عندمـا تُعلـن الأفـكار حربهـا، والصـوت كان يتحـدث لغـة أفهمهـا، يتحـدث بصوتـي وطريقتـي وتفاصيـل مُصطلحاتـي.. إنـه عُقـدة الذّنـب التـي تَعيـشُ فـي داخلـي:

_ مـاذا تفعـل هنـا؟ ولمـاذا أتيـت؟ ومـا نهايـة عالـم الخطيئـة هـذا الـذي يُفقـدك عقلـك؟ كُـن أحمقـاً مجنونـاً كمـا تُريـد ولكـن ليـس علـى حسـاب أحـد، فالمشـاعر التـي تتملكُكَ الآن سـوف تتلاشـى شـيئاً فشـيئاً وأنـت تَعلـم ذلـك، لِمَ الجنـون إذن؟.

كان يخنقنـي، وكمـا اعتـدت علـى الهـروب قَـد هربـتُ نحـو دَفتـر ذكرياتـي وكتبـت:

أنـا الآن هنـا بيـن جـدرانِ غرفـةٍ كلاسـيكية هادئـة جـداً، أقصـد هادئة لـو أن الصوت بداخلـي يَصمـتْ ويتوقـف عـن تأنيبـي، وأنـا أهـرب وأدقـقُ النظـر بزخرفـات المغـرب الأكبـر التـي ترتسـم بـكلّ مـكان وأعيـد التفكيـر، أفكـر و نظـري يلـوح هنـا وهنـاك باحثـاً عـن ذاتـي لمـاذا أنـا هنـا؟ وكأنـه أصابنـي الزهايمـر ونسـيت كل شـيء، أتقلـب مـن جهـة إلـى أخـرى وأتفحـص زاويـة غرفتـي الصغيـرة بتـروٍي مثـل طفـل ضائـع فـي مسـاحة بسـيطة بيـن حـدود أربعـة جـدران ملوّنـة يبـرق منهـا انعـكاس الإضـاءة الخافتـة، أقـاوم الأرق بعنفـوان كـي أنـام وأتخلـص مـن ذاك الصـوت القبيـح الـذي ينـوح مـن عمقـي النـادم، أقاومـه هاربـاً أو مُنتظـراً جنونـي العاشـق لكـي يخفـت صوتـه مـن جديـد ويكتمـه ويـا ليتـه يُخلّصنـي منـه إلـى الأبـد!!..

كنتُ أكتب كلماتي وأرتجف و أحفظُ غصّتي في صدري وأتأمل خطي المُتعرّج، أتصبّب عرقاً وكأني في فصلٍ آخر يُعارض ما يحصل خارج النافذة من مطر وبرد و ريح، أرتعش من رأسي حتى قدميّ، أشعر أن خطيئةً تَسكنني ولا أريد الاعتراف بخطيئتي، لا أريد الاستماع لذلك المزعج الذي يصرخ كل قليل بداخلي.

أكتبُ وأرى الأحرف مثل ناريّن أحلاهما جحيم وأسوأهما جحيم آخر.

لم أعلم إن كانت خطيئتي تتعلق بزوجتي أو حتى قدومي إلى المغرب أو أن خطيئتي هي بحق ذاتي و حق نَفسي، أنا الإنسان الذي ضَحّيت بكل شيء في لحظة وأريد استعادته بلحظة.. أنا فعلاً مَخبول لا أفهم ذاتي..كم أنا عاشق مجنون وحالم ضائع يرافقني طموح مُدمِّر، طموحً ضائع ومخادع ومنافق، وأنهيت كلماتي لأكتب ما يَصرخ في داخلي:

أيها الشاب المُدّعي، كفّ عن الحماقة قليلاً واسمع، أنا عُمقك الذي ينقذك، أنت لست أهلاً لأن تكون و لست أهلاً للتضحية، أنت فَقط تُلاحق ما نزعته منك الحياة بكل حقارة، ومن ثم أليس هذا طريقك الذي أنت اخترته؟ إنه اختيارك شئتَ أم أبيت، زوجتك اختيارك شئت أم أبيت.. وضعفك هو مُشكلتك أنت فقط، إما أن تكون أنانياً مثلهم أو اخضع لي دون محاولات فاشلة للتحرّر، أترى نفسك بمرتبة رجل يستحق الاحترام بهجرانك وخداعك قلب زوجتك المخلص أكثر من مشاعرك المؤقتة التي سوف تَرحل في أحد الأيام؟ كُف عن التَمثُّل بالروايات والأفلام وعش واقعك دون أن تدمر نَفسك أكثر.

وبَعد لحظاتٍ من انتهائي من كتابة ما أسمع، شَعرت أنّي يَجب أن أغرز خنجراً داخل صدري كي أتخلص منه، كي أخمده لأبد الابدين. أكرهه وهو يمتزج بخيالي كأنه مطرقة تَضرب صدري بِكل عنف وبدون رحمة، وأكملت خَطّ كلماتي:

أنا شيء بدون صفة.. خطفتني الحياة وركعت أمام قلب ماري البريء، قدَّمت لها أضحية العمر وكل شيء مقابل رسمٍ بسمةٍ على خديها الحنطاويين ذوي الغمازتين المَحفورتين بوجنتيها بدّقة، وذُللت أمامها بعد أول دمعة، وذُللت بعد أول لمسة يد فأحرقت جسدي، تلك اللمسة كانت في أول لحظة استعادت بها الوعي بَعد أن انتحرت من أجلي.

ذُللت أمام أبي وأمي لأني جسّدت شخصيةً مُستبدة مُخادعة برأيهم. مشكلتي أني إنسان بقلبٍ مُغفل يَستمع إليك وأنا أعلم أنك تَخدعني.

وكانت خُلاصة تِلك الملحمة المُقامة في رأسي:

"بعد كل ضربة على رأسك تفقدُ القليل من أوهامك والكثير من ضعفك، وهكذا تصنع منك الحياة منحوتة فنيّة يُحرمُ ضربها من جديد كيّ لا تفقد غائية الضربات السابقة لك!"

بدأت خيوط الشمس باحتلال غُرفتي، وأشرقت سارقة ما تبقى من أرق يمنعني من النوم لترميني مُنهك الأفكار في سباتٍ عَميق، كنتُ مثل جثَّة تخلصت من أعباء الضمير والعمق الصارخ بداخلها، جثَّة تخلصت من كل شيء

وغربلت نفسها للمرَّةِ الثانية مما تكبَّدته من معاناة ومن تمزيق عُقدة الذنب المُجرمة بحق ذاتٍ ضائعة، بذاك السُبات في الأمس رأيت في أحلامي نوعاً من الحياة الاستثنائية مع ملاكي، تَمتَّعت بها وحاولت جاهداً أن يستمر سباتي للأبد لأننا عندما نَحلم نظنّ أننا نستطيع تحقيق كل شيء، ونَعتقد أن الأحلام تقودنا نحو الوصول مُتجاهلين واقعنا.

أصّف تلك الحالة -عندما يتبلّور العشق بأبهى صورة- هذا هو حال العشاق: مجموعة ضائعين حالمين بحياةٍ أخرى، هاربين من واقع يُقصيهم ومجتمع يَرفض ثورتهم ويسميها بالرذيلة، ها هو حالهم منذ أزل التاريخ ولم تكتمل قصة أحدهم يوماً وكل روايات العشق تحمل الألم، ولكن لا أحد يُريد الاقتناع بتلك الحقيقة، أنه بالنهاية جنون في جنون.

استيقظت، يُرافقني صداع يَضربُ في صدغِ رأسي دون توقف ودون رَحمة، كل شيء حولي يتأرجح داخل عينيّ وتسيطر عليّ غَباشة الرؤية، أحتسي قهوتي الصباحية والهموم تأكل جَسدي بهدوء.. أنهيت قهوتي وبدأت بكتابة هذه الكلمات التي تَصفّ كُل مشاعري بحياديّة وتناقض دون تأويل وتَجميل، سيأتي اليوم وأوراقي تَتكلم عما أشعر به.

قَضيت ساعات أمام دَفتر ذكرياتي حَتى حان وقت اللِّقاء الثاني، ارتديت ملابسي مُتجهزا للخروج في جولتي السياحية مع ياسمين، لكن قبل الخروج نظرت في المرآة وأنا أطوف بين مَدّ الحزن في أعماقي و جزر الفَرح ليعيدني إلى بحري المضطرب، ورغم ذلك لم أرى نفسي، بل رأيتُ شخصاً آخرَ يتخابط ببعضه ويتوارى خلف خيبته بنوعٍ من النّدم وتنوح بداخله أصوات عدة،

فخرجت هارباً نحو موعدي وتركت ورائي فُتات أفكاري التي أحتلتني في الليلة الماضية، ورَسمتُ هَدفي بأن ألاحق تفاصيل الجمال المكمونة في وجودي مع ياسمين لأخلدها في دفترِ ذكرياتي وأستمتع بقراءته كل يوم. وصلت إلى قهوة مُحايدة عن ضجّة المدينة وكانت هادئة جداً، يعمل بها رجل في الخمسين من عمره على ما أعتقد، كان جِدِّي التعامل ومُغرق العينين.

أستقبلني: أهلاً وسهلاً بك، ماذا تريد أن تشرب.. قلت شكراً لك، أنتظر أحدهم.

وقاطعنيَ صوت ياسمين: اثنين من الشاي الأخضر إذا سمحت.. وأكملتْ:

- صباح الخير، كيف حالك اليوم وكيف كانت ليلتك الأولى في الفندق.

كنتُ أستمع وأنا أنظر لها بشكلٍ غَريب، رددت بلهجة مازحة عليها: تَتهميني بالذكورية وأنتِ تُجبريني بالشّاي الأخضر أيتها الأنثوية، يكفي إجباراً وقمعاً لحريتي في الاختيار، دعونا نحضى بالحرية يا نساء العالم.

وأنهيتُ كلماتي ضاحكاً..

ياسمين، بعد ضحكةٍ طويلة: اعتبره نوع من مشروب الضيافة، ومن ثم يجب أن تتعايش مع الكيان الذي يسكنك بكل جوارحك وحواسك أليس كذلك أيها الشّاكي؟ نعم نعم لا تنظر لي هكذا وحتّى مع الشّاي الأخضر لأنّي أحبّه.

وابتسمت ابتسامة طفوليّة ثم غيّرت ملامحها وعقدت حاجبيها و زمّت على شفتيها وقالت حسناً.. وجلست وابتسمت من جديد، عشقتُ تلك التفاصيل الطفولية التي تنبع منها، إنها مثل مكتبة تحمل بداخلها كل أنواع الثقافات، السحر، الجمال، الفلسفة و حتى كتب الأطفال التي تنشر البهجة.

ابتسمت لها ومن ثم رفعت حاجبي و كأني الآن فهمت مزاحها العابر وأطلقت ضحكة مُصطنعة وأيضاً لم تجدي نفعاً، حسناً لنتجاوز تلك المواقف المُحرجة:

- أتعلمين أني سافرت في الليل باحثاً عن نهاية لما يحصل، لكن عُدت إليك خاضعاً، وعلى ما يبدو بعد معركتي الدامية بيني وبين كل ما عانيته من غوغاءٍ فكرية أنتِ مرساة النجاة في حياتي.

قالت لي أنني أحاول الهروب، قالت أن في هذه المرة فَشلت ولكن لربما نجحت في أحد الأيام وهربت مما يحصل، ربما هَربت من بين يديها، لكني لَم أكن أقصد ذلك بل ما قَصدته أنيّ أشعر بالخضوع أمامها، راكع مُكتّفُ اليدين مخنوق الأنفاس، وكلما زاد اختناقي أستنشق هواها لأعيش.

انطلقنا من القهوة نحو البحر وكانت الأحاديث تتالى بيننا بهدوء عارم، قلوبنا تَنّقضُ كل ذرة تردد وتجتاح المَجهول دون حواجز، توقَّف حديثنا للحظة بينما وصلنا إلى الطريق البحري، وقفنا هناك أمام مَغيب الشمس ذات اللون المحمر المختبئة بين الغيوم زهرية اللون، تخترقها خيوط من شمس المغيب المَغربية لتمتد نحونا وتعبر ذَرات أجسادنا، ومن الجهة الأخرى تَعبر البحر لترسم طَريق الجنّة، نسمةُ الريح البحرية تَمتزجُ مع عيوننا المتأملة وترفع شعر ياسمين ليبقي

وجهها الملائكي يتصادم مَع خيوط شمس مباشرةً دون تَشتيت، كان انعكاس الشمس في عينيها أجمل من الشمس بذاتها وهنا يجتمع سحر الطبيعة مع سحر ياسمين الرائعة.

تنقلنا اللحظات نرتجي المعجزات، مُعجزة تُبقينا كل الحياة مُتقاربين مثل أوراق الورود بكأسٍ واحدة تتراقص أمام الشمس وصوت البحر، ومعجزة استثنائية ترمي بالماضي نحو النسيان وعندها يرتاح الضمير، و حينها أعلن قراري بالبقاء هنا بدون ألم أو ندم، ألم زوجتي وهي تنتظر قدومي وألم خيانة المبادئ التي طالما دافعت عنها وأقصد أن "المشاعر نسبية وتتلاشى شيئاً فشيئاً".

ارتجفت يداي بشدّة عندما لمستني يُدّ الملائكة وعَلمت أنَّ تلك هي المعجزة التي أنتظرها لأتخلص من كل شيء أكابده، واكتملت المُعجزة عندما خَطفتُ منها قبلتي الأولى والتمستُ طيبة شفتاها وتبعثرت حتى أضعتُ نفسي وغايتي.

وأمضينا دقائقنا الأخيرة مُتشابكي الأيدي حتى اختفت الشمس وحان وقت الرحيل، بدأت بترك أصابع يدها واحدة تلو الآخر حتى الأصبع الأخير وتوقفت، لففت أصبعي عليه ورفعت يدي المتعلقة بها للأعلى حتى ثبتت بين عيوني وعينيها وقلت: اللحظات البديعة تحفر في قلوبنا وها نحن الآن نحفر ذكرانا ونرتقي نحو العشق الأسمى، تذكري ذلك وتذكري أنا أفتخر بكِ، أفتخر أن ملاكاً على الأرض أحبني وعشق كلماتي، نزلت يدانا لتترك فسحة من التأمل بملامح بعضنا البعض، فسحة كبيرة وكأنها أبديّة من دون نهاية ومن دون حدود واقتربت شفاهنا من بَعضها لنضع ختم وعودنا لكن سرعان ما أنقذتنا رياح عاتية مرّت من أجسادنا و أدركنا أننا في مجتمعٍ لا يتقبّل الحُب كُل قليل على الأرصفة

وأمام حضورِ الجماهير، ابتسمتُ لها وكأنني أستيقظُ من حلم يقظة وقلت: حسناً جميلتي لنمشي قليلاً قبل الرحيل، أخبرتني أنها لا تَستطيع لأنها مُلتزمة بموعدٍ مُحدد للعودة إلى المنزل.

استفسرت منها عن أكثر مَكان تُحبه في المَغرب ويُطلق الشّغف بداخلها وأخبرتني بأكثر من مكان مثل شلالات الأوزود و جامع الفنا في مراكش ولكن أكثرها مَن ابتهجت وهيّ تَقول اسمه هو شفشاون أو المَدينة الزرقاء في المَغرب، كانت مدينة شفشاون او المدينة الزرقاء قَد سميت بهذا الاسم "المَدينة الزرقاء" لأن كل شئ موجود فيها من أعمدة إنارة وجدران وتحف حتى الصناديق الخاصة بالقمامة الموجودة بها ملونه جميعها باللون الأزرق، و زرقة هذه المدينة تعودُ الي القرن الخامس عشر و ذلك عندما فرّ اليهود هاربين من اسبانيا بسبب الاضطراب الدينى و استقروا بمدينة شفشاون و عند استقرارهم بدأ تحول المدينة للون الازرق حيث يعتقدون أنه لون السماء الذى يذكرهم ويقربهم من الله. و حتى الآن ظلَّت زرقاء و تمسك الناس بهذا التقليد.

قررنا أن نَقوم بتلك الزّيارة في الغد ومن ثم رَحلت ياسمين وأنا اتجهت عائداً إلى الفُندق. تباعدت عن ناظريّ مُتماشية بتألق وإغراء، تلتفت إلى الخلف كل قليل لتهديني بسمة تُهدِّئ من ولعي، واستمرت هكذا حتى رحلت، بقيت وحيداً أنظرُ للبحر المتصادم الغاضب وأتأمل كل شيء بأعين من العشق، أودع الشمس و أرتعش ويخفق قلبي بشدة و أفتح يديّ لتصب الريح على صدري وتغمرني وتخلصني من الخطيئة، استمتعت بذلك حتى رحلت الشمس بشكل كامل أيضاً وعدت إلى الفندق أوزّع ابتساماتي بلطف على كل من أرى وكأن الجميع يشاركني

الفرح، حتى وصلت إلى ممر الفندق الواصل إلى غرفتي، توقفت وارتجفت لأني أعلم ما ينتظرني بين جدران تلك الغرفة المقيتة، أعلم أنه هناك يتربص بي وينتظر وصولي ليبدأ الحربَ و يعذبني و يهدم سعادتي، إنه كالشيطان يرافقني ويلازم صدري كل حين، أتخيله يتربع هناك جاحظ العينين نتن الرائحة قبيح الملامح ومخيف.. وتارة أخرى أتخيله يسكن بداخلي وينتظر وصولي لينفجر ويبوح بصوته في كل مكان داخل جسدي لكن.

دخلت غرفتي بأعصاب متوترة لا تهدأ، كان التوتر والضوضاء يتملكاني بكل جزء من جسمي، وأنفاسي تضيق وصدري ينغلق على بعضه، أجلس وحيداً كشخص ينتظر حكم الإعدام.

[VI]

بـدأ يومـي الجديـد بصـوتِ طرقـاتٍ علـى بـابِ غُرفتـي وامتلكتنـي الحيـرة، أنـا فـي بـلاد لا أعـرف بهـا أحـداً غيـر ياسـمين؟ نظـرت مـن العيـن السـحرية للبـاب بـلا جـدوى لأنّـي لـم اسـتطع تحديـد هويّـة الطـارق، إنهـا فتـاة طويلـة القامـة مُحجبـة هزيلـة الجسـد، رتبـت نفسـي قليـلاً بعـد أن قلـت لهـا "لحظـة مـن فضلـك" وفتحـت البـاب ونظـرت بشـكلٍ مُتسـائل لأستفسـر عـن سـبب زيـارة مَجهولـة الهويـة، كانـت شـابة يافعـة فـي عمـر الثلاثيـن علـى مـا أعتقـد عاقـدة الحاجبيـن ذات بشـرة بيضـاء ويزيّنهـا حجـاب أنيـق وردّي اللـون، أهـلاً بـكِ تفضّلـي؟، إذا تكرمـت أريـد الحديـث معـك قليـلاً فـي اسـتراحة الفنـدق، بانتظـارك إلـى اللقـاء "قالـت الفتـاة بصـوت يحمـل مـن الجديّـة والإقنـاع مـا يكفـي لكـي أوافـق علـى طلبهـا دون استفسـار، شـعرتُ وكأن هنـاك قنبلـة يجـب أن أوقفهـا قبـل أن تنفجـر مـن كثّـرة جَديتهـا فـي الـكلام، كان شـيئاً مـن تلـك الدرامـا السـينمائية التـي تتالـى بهـا الأحـداث لأن المخـرج يريـد ذلـك فقـط وليس لأن المنطـق يحكمهـا، أخبرتهـا أنـي سـوف ألحـق بهـا وعلمـت رائحـة المتاعـب والأخبـار السـيئة مـلأت المـكان، لابـدّ للأخبـار السـيئة أن تصـل سـواء هربـت منهـا أم واجهتهـا، توجهـت إلـى اسـتراحة الفنـدق، فكانـت تلـك الفتـاة المُحجّبـة تجلـس علـى طاولـة مُحايـدة مكتفـة اليديـن عاقـدة الحاجبيـن جديّـة الملامـح.

نعـم صبـاح الخيـر!؟ قلـت ذلـك بطريقـة مـن الاسـتفهام والتعجّـب لا تخلـو مـن بعـض الوقاحـة وكأننـي أقـول أكـره المقدّمـات مـاذا تريديـن أيتهـا المزعجـة، وعلـى مـا يبـدو أنهـا تَكـره المُقدمـات أيضـاً واسترسـلت بالـكلام بطريقـةٍ هجوميّـة:

اسمعني يمان أتيتُ إليكَ خوفاً على مستقبل وحياة صديقتي وأختي، أتمنى أن تتفهم ذلك دون انفعالٍ طائش والتعايش مع أجواء العشق الكاذبة.. أنتما ضمن مجتمع له قواعد مُحدّدة ويجب عليكما احترام ذلك وأنا لا أطلب منك ومنها بل أقول يجب عليكما ذلك.. "سكتت بُرهة ثم أكملت ما تقول وهي تراقب ابتسامة الاستخفاف على شفتي".. لماذا تَنظر اليّ بهذا الشكل"

مددتُ جسمي على الكُرسي وجلست بتكابر مُنحنياً للخلف وقلت "نعم وماذا بعد؟ أكملي؟؟ "كنتُ أتقصّد استفزازها وأعاملها بنفس الوقاحة، تلك الوقاحة عندما يدخل أحدهم حياتي بهذه الطريقة الفظّة ويبدأ بالمواعظ وكأنه برتبةٍ تَسمحُ له بذلك، أعادت النظر لي نظرة اشمئزاز، شعرتُ حينها أنها لَم تأتي لتتحدث معي بل لتهدّدني، أكملتُ حديثي وأنا بنفس الانحناء على الكُرسيّ وقلت:

حسناً اسمعيني جيداً أيتها الشابّة المُنفعلة، لا أعلم من أنتِ ولا أعلم ما علاقتك بياسمين ولا حتى أعلم نواياكِ، وللصراحة لا يهمني كُل ذلك، لهذا ما تحملين بداخلك من أحاديث عن القيم الاجتماعية لا يلزمني واعلمي أنّي آخر شخص يُمكن أن يستمع لشيء من هذا القبيل وخاصّةً بطريقتك تلك، والآن أستأذن منك نلتقي مرة أخرى.

- أنت فعلاً مغرور كما قالت ياسمين.

بالضبط، أنا مَغرور ولامبالي أيضاً وبما أن ياسمين أخبرتك بذلك يجب أن تتوقعي إجابتي وموقفي من دون ممارسة هذه الدراما التَهديديّة، إلى اللقاء مرة أخرى.

جَهّـزت نفسـي للنهـوض وأنـا أردّد فكـرة برأسـي: طالمـا كُنـت أُعجَـبُ بكلمـة مَغـرور، إنهـا لا تُعبّـر عنّـي بـل تُعبّـر عمّـا أحـاول اصطناعـه أمـام الجميـع وبقولهـم لـي أنـي لامبالـي أشـعر بشـيء مـن النجـاح، لكنهـا تَكلّمـت مـن جديـد:

- انتظـر، الموضـوع لا يتوقـف عنـدك أنـت وتلـك المُغفّلـة الأخـرى، اخرجـا مـن عالـم المراهقـة ذلـك وعيشـوا واقعكـم لأن الموضـوع ليـس بتلـك البَسـاطة، قاطعتهـا قائـلاً بنبـرة حاسـمة: بالضبـط عالـم مـن المراهقـة لذلـك حاولـي أن تحافظـي علـى اتزانـك ولا تُقحمـي نفسـك بـه لتبقـي مـن العُقـلاء، هـل تَحتاجيـن أن أقـول لـك إلـى اللقـاء ثـلاث مـرات لكـي تتركينـي!

ثـم تأمّلـتُ ملامحهـا الغاضبـة و تسـاءلتُ فـي سـرّي "مـا الـذي يجعلهـم يقحمـون أنفسـهم بحيـاة خاصّـة لأشـخاص آخريـن؟ مهمـا كان السـبب لا أحتـرم تلـك الطريقـة التـي يتكلمـون بهـا وكأنهـم يملكـون سـلطة مـا علـى مـن يخطـئ كمـا يدّعـون" أعـادت ترتيـب جلوسـها بشـكل آخـر، وضعـت يديهـا علـى رأسـها مثـل شـخص يتألـم مـن الصـداع وقالـت: أنـت لا تفهـم ولا تـرى مـا أنتمـا بـه، فَقـط تخلّـص مـن غـرورك قليـلاً وحدّثنـي واسـتمع. كانـت نَبـرة صوتهـا فـي المـرة الثانيـة أخـف وذات أدب أكثـر، حتـى أنهـا كانـت لهجـة رجـاء بَعـد أن فقـدت الأمـل مـن أسـلوب التَرهيـب، وهنـا اسـتغليتُ الفرصـة لأبـرز نـوع مـن الاسـتفزاز لعلّهـا تغضـب وترحـل مـن أمامـي وقلـت: حسـناً سـوف أحـاول ذلـك إذا تكلمـتِ بطريقـة أفضـل.

لكن طريقتي لَم تَنجح بل فعلاً تَكلمت بطريقة أفضل:

- حسناً أنا اسمي مريم صديقة ياسمين وبمثابة أختها، أعلم ما حصل بينك وبينها من إعجاب أو ما تسمونه أنتم بالحب، لكن لم أتوقع أن يصل بكما ذلك بتجاوز كل تلك الحدود، اختلاف الدين و.. ثم سكتت للحظة ونظرت نحوي نظرة مُعلّمٍ لجاهل وسألتني: أنت تعلم أن ياسمين من عائلة مُحافظة جداً؟ كان وقع كلامها ثقيلاً على صدري ليس من أجل الدين أو المجتمع، بَل من أجل عائلتها! اخترقت رأسي فكرة أن عائلة ياسمين وأخاها مُتطرف دينيّ من المُحتمل جداً أن يؤذيها بمجرد أن يَعلم شيئاً مما يَحصل، قَد كنت أعلم ذلك بشكل أو بآخر كما شرحته لي ياسمين لكني كنت مثل مُزارع يتظاهر أنه حرث الأرض ويصدق ذلك وهو لم يضرب معوله في التربة يوماً، كنت أعلم وأتجاهل دائماً وكأن أكتافي تحمل ما يكفيها من الهموم ولا تُريد المزيد، الأمر لا يَختلف عَن رجلٍ يَحمل جبلاً على ظهره ويهرب خوفاً من حَصوة صَغيرة لأنه يُدرك أنها سَوف تَكسر ظهره بقوّة، أكملت مريم حديثها: أين ذهبت في تفكيرك، هل كنت تَتوقع أن أخا ياسمين سوف يتقبل هذه المَهزلة "قالتها بلهجة من التّصر ورفعت رأسها وهي تَنظر لي بطرف عينها". وها أنت الآن تَعلم، ما شعورك عندما تَحرم فتاة من أهلها ومُجتمعها ومنّي أنا أختها في هذه الحياة لتحقق غرور المراهقين!.

علمت حينها أنها لا تعلم أني متزوج لأن مَن تُريد المُهاجمة بتلك الطريقة كانت استخدمت أكثر ضربة يمكن أن تؤلمني، أو كما يظِنُّ أولئك الذين يَحكمون على المتزوجين دون معرفة تفاصيل حياتهم، أن ابتعادي نحو امرأة أخرى يَعني أنيّ خائن أفتقرُ للأخلاق، لكنها لَم تُجرّمني بذلك.

رَتلّتُ كلماتي الأخيرة وأنا أستعدُّ للرحيل: اسمعيني مريم، وحاولي أن تتفهمي ذلك لأني سوف أقوله متأملاً منك عدم الجدل لأن الموضوع منتهٍ بالنسبة لي بما يتعلّق بالشطر الأول من حديثك وهنا أقصد الدين والمجتمع، لا أملك من المقدّسات إلّا الإنسان ولا أملك من الاحترام إلا لحرية الإنسان ولا أملك من التعايش إلا لسعادة الإنسان، لن يغضب الله من الحب و لن يغضب من جنون المشاعر ولن يغضب من الصدق، حتى الإنسانية يستحيل أن تغضبه، الوحيدون الذين يغضبون من ذلك هم كهنة الدين المُتطرفين والمنقادين وراءهم مثلك أنتِ، إذا كنت ترين الصواب أنه لا يَجدر بنا الارتباط لك كُل الحرية بما تَعتقدين، لكن لا تجرأي أن تفرضي ذلك عليّ أنتِ أو أحد آخر كائناً من يكون. أتينا للحياة مُطلقين صرخة الحب والصدق دون نفاق وتأويل، هكذا الأطفال وكلنا كنا يوماً ما أطفالاً لا نَعلم من الحياة سوى أن نَبتسم للآخر سواء أكان مُسلماً أو مسيحيّاً أو ملحداً أو لونه أبيض أو أسود أو مهما يَكن، بل كُنا أطفالاً صادقين مَع الحُب والحياة كما أحاول أن أكون الآن. لكن أتعلمين لما أنتِ هنا تطلقين عليّ اللّعنات وتَرهيب المجتمع؟ لأن المجتمع شوّه ذلك بداخلك، شوّه الإنسان الصافي المُحب بداخلك، مهما كانت أفكارك تَذكري أن هذه أفكارك أنتِ فَقط، أفكارك التي حُقنتِ بها دون اختيار، أما أنا.. أنا وياسمين لنا فلسفتنا وحياتنا التي نراها في قلوبنا، نراها بين الغيوم وبين الجمال وبين متاهة الإنسان.

جحظت عيناها و ارتخى فمها ونظرت نحوي نظرة غريبة وكأنها تنظر لأحد الأنبياء المُبشرين، نظرة من الصحوة والتأنيب.. أكملت ما كنت أقول بكلمات شفافة ترتدي تاج الثقَّة وقلت:

أمَّا من أجل ذاك الجنون في قلبي وعشقي الغير مفهوم أنه لن يتجاوز حدود صدري الذي سوف يَسكنه للأبد، ولهذا لن أبرره لك، على كلٍ لا أحد يستطيع تبرير ما يخوض قلبه من عذاب وحب لأنه لعنة من الحياة تأكل وجدان الإنسان وتحدثه بِلُغةٍ لا يفهمها إلا هو، الإنسان والكون تياران لا أحد منهما يفهم لغة الآخر لكن يجمعهما الحب والموسيقا "إنها اللغة المشتركة". لن أشرح ذلك أتعلمين لماذا؟ لأني أخبرتك سابقاً أن لكل إنسان لغة من الجنون لا يفهمها أحد غيره وغير من يعشق بصدق وهنا أقصد ياسمين، تذكري ذلك.

كانت عيون مريم تتألّق حين ذاك، رأيت في عينيها بريق الحزن وكأنها انطلقت في صحراء غابرة تبحث عن الأمل بين حبات الرمل الحارقة، أيقظتُ رواية عشقٍ ما بداخلها وكلٌّ منّا يملك رواية عشقهِ في ثنايا الروح، قاطعت نظرتها الحزينة وضربتُ أصابعي على الطاولة بشكل خفيف لألفت نظرها، نظرت لي وكأنها استيقظت من خيالٍ ما وقالت: يمان أنت ربما مُحق لا أنكر ذلك ولن أدخل معك بجدال عن ما تكلمت عنه من جنون الحب و تحكم المجتمع وكل هذه الثَرثرة لكن سواء كنت على حق أم لا أنت تعيش في واقع مفروض لا يتقبل كل فكرك الاستثنائي هذا.. ولكي أكون صريحة معك لا أهتم سواء تَقَبَّله أو لا لكن لن أدع ياسمين تقتحم هذا الجنون معك مهما كلّف الأمر، سوف تدّمر حياتها وتبعدها عن الجميع ومنهم أنا، غير أنك سوف توقف مستقبلها المهني، كل هذا من أجل ماذا وفي سبيل ماذا؟ جنون الحب!! اصحَ من ذلك الوهم. وأيضاً تَذكّر كلمتي: "لَن أدع ذلك يحصل مهما كلّف الأمر."

اقتحمت عقلي أفكار متتالية وكأني أرى لَمحة من المستقبل المرير، لَمحة من نتيجة ما يحصل، اضطربت وتوتر كل شيء بداخلي.. حاولت الحفاظ على اتزاني ووقفت لكي أرحل دون أن أنطق بكلمة واحدة.. تركت مريم هناك تُردد كلمتها الأخيرة "لن أدع ذلك يحصل مهما كلف الأمر" وكل منّا زرع شيئاً داخل الآخر، كل منّا على حق ولكن الاعتراف بأفكار الآخر يحبط أفكاره التي يَصرخ بها، رَحلت ونظراتها يملأها الحقد على غروري و أفكاري الجدليّة التي لم تترك لها مجالاً لأي نوع من الكلام.

وصلتُ إلى غرفتي و جلست بجانب النافذة ونظرت للسماء: بدأت أرى الأمور من منحى آخر وسؤال مريم يتكرر على مسمعي كل قليل "من أجل ماذا؟ جنون الحب!"، سحقاً لا أريد سوى أن أذهب حيث يميل قلبي ليس أكثر، كل شيء يقف في وجهي مثل سور محصن يطلق الرماح على من يحاول أن يقتحمه.

تربعت الشمس في منتصف السماء وبدأ العد التنازلي للقاء التالي مع ياسمين، اللقاء الأصعب ربما؟!

[VII]

التقينا للمرة الثالثة، كنت أشتعل مثل جمرةٍ تَحتاج الماء لتنطفئ ويتوقف الاحتراق، كنتُ مُشتعلاً لمُلامستها والاستماع لنغمةِ صوتها المُترنح بَين أوتار القانون الهادئة، حَمل كُل منا قَلبه بَين أضلعه إلى الآخر كي يلتقي القلبان ويأخذ الكون لونه الزُمردي من جَديد، أخبرتها كم اشتقت لها وأخبرتني وتَشابكت الأيديّ إلى مراكش نحو المدينة الزرقاء السَاحرة، بدت لي حين وصولنا إلى هناك أنها تُحفة فَنيّة من صُنع الآلهة، اللون الأزرق بها يعطيك شعوراً أنك تَدخل للسماء بَين غيومها وخيوط الشَمس اليافعة، كُنّا حينها مثل طيورِ اليمام المُسافرة نحو الجهةِ الأخرى من العالم، طيور هاربة من ماضيها الذي قَصّ أجنحتها لكنها نَبتت من جديد بواسطة ذواتنا المُتأملة وها نحن نسافر ونَطير نحو ما وراء واقعنا.

جلسنا على الدرج في المدينة والتفتُّ إليها، رفعت يدي لأبعد خصلة شعرها السوداء عن خدّها الغارق في بحرِ النعومة والإبداع، وكنت أنتظر لساني أن ينطلق لكني عجزت وبقيت عاجزاً حتى نطقت هي: الصَمت يكفيني ولغة العيون تغويني، أحبك.. أعدت نظري إلى تَفاصيل الجدران الزرقاء و تغلغل الفرح في قلبي حتى أرتعش جسدي مع مرور الوقت وصُراخ الصّمت، لا أريد أن ينتهي ما أعيشه لكنِّي أشتم رائحة الأخبار السيئة من جديد!!. وبَعد رحلةِ الصَمت بدأت تُحدثني لكني قَد تُهت عن التفاصيل و كنت أرى عالماً آخرَ من عيون ياسمين وكل شيء يَختلف ويزداد جمالاً عندما تَنعكس صورته بَين جفونها. وبَين كلماتها وابتسامتها احتللت فرحها لأخبرها بما حَدث مع مريم، بدأت ملامحها تتغير

والفرح يُنتزع من وجهها والغضب يَنفر من عينيها، قالت أنها تُحبّها جداً وأن مريم بمثابة أختها وأكثر ولكني أنا شيء آخر لا يُماثل شيئاً منهم. والبقاء مَعي حياة تَستحق أن تُقدِّم كُل شيء كأضحية لآلهة العشقِ والجمال، كنتُ أشعر أن كلماتها مُتسرعة تَفتقر للاتزّان ولكني أعلم أن ياسمين ليست امرأة تَفقد اتزانها بقراراتها المَصيرية، امرأة عندما تُقرّر أن تُضحي سوف تَفعل، وبتلك اللحظات تَذكرت مُقتبساً قديماً كانت تَستخدمه ياسمين في حوارها ومقالاتها وقَد رددته بصوتٍ مَسموع لتعلم أني أتفهم كُل ما تقول:

عندما يَعشق الإنسان بالعقل قَبل القلب، عندما يَعشق الأفكار قَبل الخوض في غزل العيون، تلك هي العلاقة التي تَستحق التَضحية.. وبمناسبة التَضحية في الكثير من الأحيان تَكون مَجبولة بالهروب.

انتهيت من كلامي ونظرت لي ياسمين وهي تَعلم أني تَفهمت أفكارها، تَفهمت أنها قررت الهروب معي من واقعٍ يائس فَرغ الأمل منه ومن إصلاحه، أسرار وأسرار لا أعرفها عَن حياتها ولكن كُل يوم يَظهر ألمٌ أكثر، وكمّ هذا الألم والرفض من المُجتمع اعتبرني عملة نادرة متنورة تَستقبل شَخصية ياسمين الثائرة، كانت تلك الأحاديث هي الباب لكي نُقرر مُستقبلنا وكان القرار عبئاً علي كلينا ولكنه عبء حاصل لا محالة ومن ثُم دون أن نستخلص نتائج واضحة مَرت علينا ساعات ونحن نَتحدث، نَضحك ونتغزل ونَسرق اللمسات والقُبل حَتّى انتهى وقتنا وحان موعد رَحيل ياسمين ورحلت لتترك لي كَلمتها الأخيرة "غداً سوف تَعرفُ كُل شيء، غداً سوف نُقرّر كُل شيء أو ربما يَنتهي كُل شيء، أحبّك أكثر مما تَتخيل يمان، إلى اللقاء" وافترقنا.

بـدأتُ أمشـي وحيـداً متفرغـاً ومتهالـكاً مثـلَ الضائـع، لا أعلـم نهايـة رحلتـي، تتـراوح الأمـواج بداخلي وتُعلى أصوات وأخـرى تَنهـدمُ والضجيـج يمـلأ رأسـي، أرفـع عينـيّ نحـو السـماء وأرى ياسـمين لأنتشـل منهـا شـعوراً بالعشـق لأدرك أنّـي يَسـتحيل أن أفقـده يومـاً مـا ومـن ثُـم أُخفِـضُ عينـيّ نَحـو الأرض وأدركُ شـعوراً يَنعكـسُ تمامـاً، أخـافُ أن أخـوضَ مـا يؤلمنـي أكثـر "عُقـدة الذَنـب".. هَـل يُمكـن أن تُعـاود مـاري محاولـة الانتحـار عندمـا تَعلـم أنّـي هنـا؟

لمـاذا أمّـر بذلـك ومـا الـذي يحـدث ومـا أنـا بيـن كل ذلـك ومـا عسّـاي أن أكـون بعـد سـنة مـن الآن؟.

أسـئلة تَخترقنـي دَفعـةً واحـدة والألـم والذنـب يحيـط بـي بـكل مـكان، فـي تلـك اللحظـة كنـتُ مشـوّش الفكـر متهالـكاً أريـد الابتعـاد عـن كل شـيء، أريـد التخلّـص مـن كل شـيء لَيـس أكثـر، أدمـر حياتـي مـن جديـد وأبـدأ بقلـب كالحجـر لا يشـعر ولا يتألـم بـل يكتفـي بالخـواء فقـط، أرمـي شـعوري وتفاهـة خواطـري و أعيـش بسـلام، بعيـداً عـن النسـاء السـاحرات و أمراضهـنَّ النفسـية!!

فـي طريـق الرَحيـل دخلـت إلـى حانـةٍ صغيـرة، خشـبية الأثـاث ودافئـة جـداً، يكثـر بهـا المتهالكـون مثلـي، كانـوا صامتيـن مكتئبيـن لا يتكلّمـون بكثـرة، كنـتُ أمـر عليهـم واحـد تلـو الآخـر و أتسـاءل مـن يعيـش مـا أعيشـه، أريـد أن أعلـم مـا يفكـر بـه كل شـخص ومـا يمّـر بـه ويشـغل تفكيـره فتلـك كانـت هوايـة اسـتثنائيّة أقـوم بهـا، جلسـت بـكل هـدوء علـى طاولـة تتوسـط الحانـة مرتبـك الملامـح وأنتظـر بعـض الاهتمـام مـن النـادل، حَتـى قَـدِمَ إليّ:

- أهلاً وسهلاً بك ماذا تريد؟..

- قهوة من دون سكر إذا سمحت.

- أنت ضيف هنا أليس كذلك؟ أهلا بك قد علمت ذلك من لهجتك، أهلاً وسهلاً مرّة أخرى.

كان يصعب عليّ التأقلم مع لهجة المغرب بعض الأحيان لكن فترة التحدث مع ياسمين كانت مثل فترة تأهيلية كاملة للتأقلم مع ذلك وخاصة أنها تُتقن التأقلم مع اللهجات كونها مُمثلة مسرحية، قاطع شرودي النادل مرة أخرى وعرض عليّ أيّ خدمة أخرى قَبل رحيله، طَلبتُ منه ورقة وقَلم لأدوّن القليل من ذكريات رحلتي وأنا أعيش أوجّ المشاعر قبل العودة إلى الفندق.

قال النادل: طبعا لا مشكلة بذلك أهلا وسهلا بك، هل أنت شاعر أو طالب جامعي هنا، رسام شيء من هذا القبيل؟.

قاطعت ثرثرته قائلاً "طلبي الأخير القليل من الهدوء إذا أمكن ذلك" قلتها بنوع من الوقاحة التي لم أندم عليها. أحضر لي الورقة والقلم وفنجان القهوة وكانت ملامح الغضب تنفر من وجهه الصغير ذي الشاربين الرفيعين، يبدو أنه لم يتجاوز السادسة عشر بعد.

بدأت بكتابة خواطري التي تنتاب فكري وكنتُ أعتبر ذلك مخدراً ذا نَتيجة رائعة لكي أزيل الأحجار التي على صَدري، وبعد نِصف ساعة قاطع سلسلة كتاباتي صوت الهاتف، إنها زوجتي تطمئّن عن أحوالي كالعادة، تجاهلتها بحجة النوم لكن لمعت في رأسي فكرة لماذا تتصل في مثل هذا الوقت المتآخر

فيَجب أن تكون في فَترة نومها الآن، الفرق بيننا ثلاث ساعات، وصلت رسالة منها؟ وكانت كلمة واحدة فقط لكن مُثيرة للشكِ جداً، كلمة رافقتني كُل رحلتي والآن تظهر من جديد بأسلوبٍ أكثر قَسوة، كانت "لماذا؟"

أعدتُ هاتفي إلى مكانه على الطاولة وكتبت على أوراقي: لماذا لماذا لماذا؟ فعلاً لماذا؟ وضَربت يدي على الطاولة ونظر الجميع نحوي مُتسائلين عن هذا الأبله، حسناً لماذا! أمسكت قَلمي وبدأت بصّب غضبي على الأوراق من جديد:

ربما لأني رجل لم أرى الحياة، لم أرَى ما يستحق التمسّك به، لم أتحرر كما الآن، لكن ما ذنبي إن حدث ذلك في وقتٍ خاطئ؟.. وكتبتُ الكثير والكثير وجلدتُ نَفسي حتى آخرِ رمق، ومن ثم بدأت الكلمات تَضيعُ مني والحروف تتشّوش وأشعر بالسقوط فوق الطاولة.

- سيدي، سيدي يبدو أنك منهك جداً، هل أوصلك إلى المنزل أو أطلب لك أحد ليقوم بمساعدتك؟ "صاحب الحانة كان يقول ذلك وهو يوقظني من سبات عميق، ربما كان يظّن الجميع أنه سبات لكن الحقيقة أني غبت عن الوعي مع كمّ الأرق والتَفكير الذي رافقني في الأيام الماضية، جسمي أراد الاستراحة مما يُعانيه وأخذ ذلك في وقتٍ غَير مناسب. أخبرت صاحب الحانة أني بحالة جَيدة وسوف أذهب إلى الفُندق لوحدي ولكنه أصرّ على مُساعدتي لأني ضيف في المَغرب كما ادّعى، شكرته على كرم أخلاقه لكن لاحظت تغير نظرة العامل الذي قسوت عليه في الكلام من قبل، كأنه يقول لي احذر أو يستعطفني أو شيء من التنبيه لما يحصل، لم أفهم نظرته المُريبة ولم أكترث، وبعد الوصول إلى سيارة صاحب المطعم بعد كمّ كبير من عرض المساعدة حتى أحرجني بالقبول

كان سؤاله الأول "حسناً لم تخبرني ماذا تفعل هنا في المغرب؟" كانت علاماته جديّة ولطفه في الكلام مُصطنع وغير حقيقي، نبرته مُربكة بعض الشيء، أجبته أن لدي بعض الأعمال وردَّ مُسرعاً ما الأعمال التي تتحدّث عنها؟. زادت حدة الكلام وعلت نبرة صوته، قلت حائراً من طريقته: "بعض الأعمال الخاصة فَقط" همهم بهدوء قائلاً: "لا تريد التحدث أو لا تملك ما تقول، بكل حال لأكون صريحاً معك، قد ذكرت اسم بكثرة عندما كنت تستيقظ من سباتك، ولأكون أكثر وضوحاً مَعك قَد قرأت ما كنت تكتب على الأوراق التي طلبتها عندما تقدمت منك لأتفحص حالتك المُريبة".. لم أكترث لما كان يقول، أو بدقة أكبر لم أكترث كما كان يتوقع مني، نَظرت له وهو يُمسك المقود بحزم وملامح الغَضب تَتضح عليه، وقلت: جيد قد قمت بلفت انتباهي لكي أعود يوماً آخر وأخذ أوراقي، قد نسيتهم وأتمنى منك الاحتفاظ بهم إلى حين آخر. تزايد غضبه وقال: "لن تعود مرة أخرى لأي مكان، لا أعلم من أين أنت ولا أعلم ما يدور برأسك، لكن يَجب أن تَعلم أنك هنا في المغرب، مملكة مُسلمة شرقيّة لها حدود اجتماعية لا يُسمَحُ بتجاوزها ولا يُسمح بممارسة الفاحشة مع المُسلمات".

سحقاً إنّه من أولئك المتطرفين.. حسناً.

- ديني!! صدقاً لو كُنت مسلماً لم تكن لك أيّ مشكلة في الموضوع، لكنك تعلم أني غير مسلم، أتذّكر أني ذكرت شيئاً من هذا القبيل في أوراقي ويبدو أني توسعت قليلاً بالتكلم عن أفكاري بما يخص الدين والمجتمع بما أدى لإثارة غضبك، أخي أنا لست هنا لأمارس ما تسميه الفاحشة، ما توقعته موجود في بلدي وكل مكان والأمر لا يستحق أن أصل إلى هنا لكي أقوم به، لن أطيل

الحديث ولن أدخل معك بأي جدال، إذا كان هدفك مما تفعل أن توبخني باسم الدين والعادات الاجتماعية وهكذا يحسب لك ثواب عند الله كما تظن، اعتبر أن مهمتك تمّت بنجاح وإذا كان هدفك أكبر من ذلك تذكر أن الله هو المُحاسب لما نَفعل ولا يحتاج لفرسان الشريعة ليقوموا بمحاسبتي في الدنيا. رفع صوته قائلاً بغضب:

- أتفتي بالدين وأنت مجرد ضائع دنيوي لا تعلم الطريق إلى الله تعالى، اللهم أني بلغت اللهم فأشهد.

- جيد انتهينا هكذا، قد شهد لك وحسبت في ميزان حسناتك، والآن هل تستطيع أن تُنزلني كي أُكمِل طريقي، ولكي تُكمل أنت مسيرة الثواب التي تقوم بها؟

توقف فجأة ونظر إلي وكأنه حان وقت الجهاد، كان مستاءاً من لهجتي الاستفزازية وانطلق في الكلام التبشيري الترهيبي، لم أسمع جيداً ما قال وخرجت مسرعاً من السيارة مبتعداً عنه وعن مرضه النفسي، هؤلاء المتعصبون! أشعر أنهم مجموعة روبوتات يتلقون حُقن التحريضِ والتّكفير كل فترة وينطلقون بين الجميع وينوحون بها بكل ثقة، يبحثون عن أي شيء ليصبوا ما يحملوه من أفكار التّفرقة بَين الإنسان والإنسان، فعلا إنها مهزلة، هل يعقل أن الموضوع أثارَ بهِ كلّ هذا الغضب!

بنفس الوقت تَخيلت أن أخا ياسمين سَوف يَحمل نَفس التفكير المُتطرف ولكن لَن ينقضي الموضوع على بَعض التَرهيب في الكلام بل سيتفاقم أكثر من ذلك بكثير.. كانت خيوط الشمس ما تزال تنير طريق العودة إلى الفندق وأنا

أفكر كم كانت ليلة عصيبة فعلاً وكم أنّ عقلي منهك وروحي ضائعة.. أريد النوم، أريد الاختفاء من بين هذا الحطام وأعيد ترتيب كلّ شيء، وصلت إلى غرفتي وأغمضت عيني مودعاً كل شيء، إلى اللقاء أيها العالم التافه، أيها العالم المقيت.

تلقيت اتصالاً في الصباح لأكمل ما تَجاهلته ليلة الأمس، كانت ساعة الصفر وسوف تصبح الأحداث حادّة في لحظة واحدة، من الصعب أن تصبّ عليك لعنات الندم والحب في آن معاً، مررّت إصبعي على تلك الإشارة الخضراء على الهاتف وكأني أفتح باب الجحيم، وكنت بحالة من الصمت، أنتظر زوجتي لكي تتكلّم، وتكلمت:

- لماذا؟ أنت تعلم ما أنت بالنسبة لي، لا أستطيع أن أستوعب ما يحصل، ما الذي لم أقدمه لك، لماذا فعلت ذلك، لماذا فعلته من دون خجل!! إن لَم تَخجل من نفسك أخجل من مُحيطك، يمان لا أتوقع أنك بذلك الغباء، الجميع يعلم أنك لم تسافر لأجل العمل وما قلته لي من أكاذيب بلهاء، حتى أن الجميع يعلم قصتك أنت وتلك الفتاة المغربية.

- كيف علمتِ ذلك، وكيف علم الجميع؟

- يمان يكفي ممارسة ذلك الدور السلطوي، هذا ما يهمك الآن، كيف علم الجميع؟

- للمرة الثانية والأخيرة، كيف علم الجميع بما يحصل؟

- من تظن نفسك؟

وقَبل أن تُكمل أغلقت الخط، لم أكن مستعد لتلقي هذا الكم من التأنيب بتلك الطريقة.

أعادت الاتصال، أجبتها بنفس السؤال "كيف عَلِمَ الجميع؟"

- سُحبت من هاتفك صور لمحادثتك مع التي تُدعى ياسمين، تلك الحمقاء القذرة.. وصلتني الصور على شكل تصوير خارجي، أحدهم كان يُمسك بهاتفك ويصور المحادثات وتمّ إرسالها لي من رقم غريب لا يعمل حالياً.

_ لكن هاتفي يَعمل على بصمة الأصبع ليتم فَتح القُفل!

- جيد، وهذا أسهل لمن فَعل ذلك إذا كنت نائماً، يبدو أنه أحد شركائك في السكن.

علمتُ هنا أن التَخطيط سار على ما يرام وصديقي المُقرب أيهم قام بالمطلوب على أكمل وجه لتصل تلك الفكرة إلى ماري، كانت تلك طريقتي بأن أخبرها واخترت تلك الطريقة بالذات لأتجنب أن تكون الصَدمة مني بشكلٍ مُباشر، فَلِأكن أنا الخائن الخائف المُنحط في نظرها بطريقةٍ هي تَكتشفها، وأن تَمقتني أفضل بكثير من أواجهها بصدق كما العادة وأخافُ من ضعفي أمامها، أريد أن تكرهني وتبتعد عن كُل تفاصيل حياتي.

"وبدأ صوتُ بكائها يتصاعد" اعتذرتُ لها بصوتٍ مَكتوم مع ذاتي وقلتُ لها بصوتٍ مَسموع:

توقفي عن البكاء واسمعي ما سوف أقول، صوت نحيبك أعادني لك من قبل ولكن لَن يَفعل ذلك مجدداً، مللت ذلك ومللت من قلبي المترنح بين الحياة وجحيمك، أعلم أني مخطئ وأعلم أني خائن بنظرك في نهاية الأمر، لكن أعلم أني وحيد وجميعكم منافقون.. ما رأيك أن أكمل ما سوف تقولين؟ صدقاً أستطيعُ ذلك، صوتك لم يفارق ذاكرتي منذ أن أحالت بك الأزمة العصبية وأوصلتك للمستشفى من أجلي إلى اليوم، أترين سخرية القدر، إنه يجعل مني خائناً لأني لم أكسر قلبك، فعلاً شكراً أيتها الحياة الحمقاء، أخبرتِ أمي أليس كذلك؟

- اعلم أني أريدك فقط واردتك دائماً. تعلمُ أني مجنونة، عبدة لك، لا أملك الخيار ولا أملك القرار في الابتعاد عنك، أنت تسكن في داخلي وأنفاسك تسكن أنفاسي، كل شيء فيك يأتيني ليلاً ويصبُّ في أحلامي، ثم أستيقظ لأجدك بعيداً، ومع فتاةٍ أخرى، لماذا؟

- لماذا لم تجيبي، أخبرتِ أمي أليس كذلك؟ بما أن كل شيء يعيد نفسه يجب أن تخبريهم كي يصبح الجبل على كاهلي أثقل ويؤلمني أكثر.

- لا، لم أخبر أحداً، لكن سوف يعلمون في وقتٍ لاحق، بطريقةٍ أو بأخرى سوف يعلمون.

- أعتبرُ ذلك تهديداً؟

- لا لا يمان أنا أحبك، أنانيّة في حبّك، لا أعلم كيف أصل لنفسي لكني أرى الحياة أنتَ ثم أنت.

- إذا عُدت لك الآن أتقبلين بي؟ أتقبلين أن أكون معك من جديد، أتقبلين أن أقتربَ من جسدكِ من جديد؟ سحقاً اشرحي لي مرضك بحقّ الجحيم!

رجفَ صوتها و تعالى صوت نحيبها و قالت: لا أقبل ذلك، ليس من أجل كرامتي لأني خسرتها معك ومع نرجسيتك الحمقاء، بل من أجلك، من أجلك سوف أبتعد وأقتل نفسي و أهرب منك، أهرب من عشقك وأتخلص منك للأبد، أتخلص من جحيمك ونعيمك، ربما نلتقي في عالم آخر أكون به أقوى وخالية من الإحساس، أعتقد أن هذا المطلوب كي أنتقم من خيانتك وأنتقم من أعماقي المُتيمّة بك، أحتقرك جداً.. أحتقرك بقدرِ ما أحببتك.

مرّ صوتها على مسمعي واخترق جسدي، أشعلت نيراناً مؤلمة وأطلقت صراخ الضمير وارتجف الكون وكل شيء بهتَ لونه، حتى الأمل قد بهت، كل شيء تلاشى فجأة، كل شيء فقد لونه وتَحول إلى الأسود الداكن، أصبحت شاحب اللون ومتوتراً أخافُ من نَفسي الضَعيفة. قلت:

- اهدئي.

ولم أكمل، بل قطعت الاتصال دون أي كلمة ودون أي تعبير، وهنا زاد رُعبي وزادت ضوضاء الندم، بدأت أتحرك مثل مومياء فقدت الروح، مومياء تريد العودة إلى قبرها وإلى غرفتها المعتمة..

قلبي قبر يضيقُ بي كُل قليل وجسدي يرتجف ولا أجد السبيل سوى أن أرحل، كل ما عشت به نوع من عمق ما ولا أعلم ماذا سوف أُسميّه لكنه مؤلم

جـداً، عشـت الهـروب مـن قبـرٍ مُحتّـم، والآن أشـعر أن لا حيـاة خـارج ذاك القبـر، وإن وُجِدَت سوف تُرافقني عُقدة الذنب كل حياتي إن انتحرت ماري مرة أخرى، لا شـيء يضمـنُ لـي نتائـج مرضهـا النفسـيّ!!

دمـاء تلـك الكئيبـة تتعلـق بقـراري، ربمـا لـو فعلـت ذلـك قبـل أن أتـزوج لـكان ذَنبـي أقـل مـن الآن لكـن وأنـا متـزوج وبَعـد أن أوهمتهـا أن الحيـاة قَـد تَصـحُّ معـي يستحيل ذلك، نَظرت إلى بـاب غُرفتي وتوجهـت نحـوه مُسـرعاً مـن صوتٍ أنهكنـي وأرعبنـي جـداً وعندمـا فَتحـت البـاب تفاجـأتُ! بـل صُعقـت، إنهـا ياسـمين تقـف مبتسـمة مشـرقة الوجـه، تلمـع عينيهـا شـوقاً ومـا أروعهـا مـن مـلاك؟

تخـدّرت وابتسـمت مـن خيبتي و ألمـي "سـحقاً لـن أفقـدك يـا صغيرتـي" اقتربـتُ بهـدوء وبـكل إغـراء قالـت: اشـتقتُ إليـكَ جـداً، مـا رأيـك هـل أجيـد صُنـع المفاجـآت؟.

- ياسـمين أنـا.. أرتجـف صوتـي ولمعـت عينـيَّ وتوقفـت، أصبحـت الآن أعلـم معنـى الجحيـم، وأصبحـت غبـاراً أتناثـر هنـا وهنـاك، مهمـا قلـت فـي كلا الحالتيـن سـوف أخسـر، حبسـت أنفاسـي وأكملـت: ياسـمين أنـا لا أعلـم مـاذا سـوف أقـول لكنّـي مشـوش.

قاطعتنـي بحركـة مُغريـة بعـد أن وضعـت يدهـا علـى صـدري ودفعتنـي إلـى الداخـل ودَفعـت البـاب مـن بَعدهـا لكـيّ يَفصلنـا عـن العالـم فـي غُرفـةٍ تَحتوينـي أنـا وملاكـي وأصـوات ضميـري المَنكوبـة، اقتربـت.

- اسمعيني ياسمين..

- لا لا فقد حان وقت لغةُ الصمت، أليست اللغة الأسمى في الكون، انظر في عيوني وحدثني "قالت ذلك وأنفاسها تقترب مني".. نظرت وحاولت لكني فشلت، لم أُجِد تلك النظرة المُعبرة عن خُذلاني.

وعندما اقتربت استولى الإغراء على كُل شيء وجمدت بين ذراعيها، قالت أحبك من جديد وبين شفاهي وشفاهها فسحة ضيقة من الهواء لا تكاد أن تُقاس، نظرت لعينيها وتيقنت أنني لا أحلم بل ها هي أمامي، تُلامس شفاهي وتغازلني كالملائكة، وضعت يدي على خصرها واقتربت أكثر وشعرت بصدرها يملأ شهوتي و ينتشلني من بحرٍ أغرق فيه، لم أبعد نظري عن عينيها بل شعرت أني سوف أفقدها لو فعلت ذلك، من همس صوتها اشتعلت وثرت على شفتيها، مزقتهما بتّروٍ وسرعان ما تمالكت نفسي وابتعدت حَتى غمرتني بكل حنان وقالت: لا أريد أن أفقدك.

وفي لحظةٍ صَرخ بها الكون باسمي واسمها لتشهد المَجرة على لوحتها الفنية وتلاشى كل شيء مرة أخرى، كل شيء فقد لونه مرة أخرى، كل شيء هُدِم وتحطّم بَعد أن ضُرب الباب بقوة وكان أحدهم من ورائه يَصرخ باسمها، ذبلت عيناها و بهت وجهها والرعب كاد أن يُفقدها وعيها.. قالت لي هذا أحمد، إنّه أخوها، وعندما نَطقت آخر حَرفٍ من اسمه كان قَد كُسر الباب ولم أرَ ملامح وجه أحمد بدقّة بل رأيت قطعة من الحديد موجهة لرأسي لتسقطني أرضاً، على ما أذكر لَم أكن أتلقى الضربَ من شخصٍ واحد بل مجموعة أشخاص ينهالون عليّ بأقدامهم، وعندما التفت إلى يميني رأيت ياسمين مَرمية أرضاً، تَرتجف من

رأسها حَتى أسفل قدميها بشكلٍ مُرعب، إنها نوبة الصرع قَد أصابتها وتلازمت معها، كنتُ أرى الكهرباء تَسري في جسدها وأنا عاجز عن ضمها إلى صَدري، عاجز عن النهوض وكل ما أطمح إليه أن أغيب عن الوعي بسرعة قَبل أن أنفجر من عَجزي وأنا أراها ضَعيفة ومُتأذية.. وغبتُ عن الوعي فعلاً.

[VIII]

عندما أستيقظت كنتُ في المَشفى، ملفوفاً بالقطن على رأسي، ويدي اليمنى مُجبَّرة وتحت الجبس تَلتحم العظام المُحطَّمة، حَملت جسدي لأنهض وأنا أحاول الصراخ ولكني عندما صَرخت قَد صرخت باسمها، ويا أسفي كنت ما زلت عاجزاً عن الحراك والكدمات بكل مكانٍ في جَسدي لكني أملك بداخلي رغبةً تَجعلني أحاول أن أنهض لأركض باحثاً عنها في كل مكان، والعَجز يُدمرني مثل فارسٍ يَملك قلبَ مُقاتلٍ ولكن درعه الثقيل يُنهك حركته ولا يستطيع نزعه، بتلك اللحظات بدأت أدركُ وجود من حولي وأنا أنظر لهم بطريقةٍ غَريبة منتظراً أن أراها بينهم، أو أراها على أحد الأسرّة الفارغة في الغُرفة.. طلبَ مني الطبيب أن أهدأ وبدأ الممرضون بتثبيتي من كتفيّ وأنا أقاومهم وأرجوهم ليسمعوني قليلاً قَبل أن تَغرز تلك الحقنة في يده جَسدي، وبقليلٍ من التَعقل أوقفتُ محاولاتي للنهوض وهدأ الجميع، نظرت له بملامحي المُرهقة وسألته عن ياسمين: أيها الطبيب أين تلك الفتاة التي كانت في الفندق، فقط قل لي أنها بحالة جَيدة.. وسَكتُّ قليلاً أراقب ملامحه الصامتة وهمست له "أرجوك".

ولكن ردَّه لَم يختلف عن صمته بل قال أنه لا يعلم عنها شيئاً فهو فقط استقبلني في قسم الإسعافات، قلتُ له اسمها الكامل وطلبت منه التأكد من الأمر فأشار لي أنه سوف يَفعل وذهب من أمامي، وبَعد ساعة! لم يعد، ساعتين من الجحيم ولم يعد واستمرت حالتي وأنا بين أهوال الأفكار المُرعبة أطارد الأمل هنا وهناك دون فائدة، أرفع رأسي وأخفضه فهو الوحيد الذي أحركه دون أن أتألم وأنتظر بأجواءٍ مُخيفة مثل المكبّل بالأغلال في غُرفةٍ من الأفاعي السامة،

أنتظر أحدهم ليحررني قَبل أن تنقضَّ علي أحد الأفاعي وأسمع خبراً سيئاً عن ياسمين، واستمر الجحيم حتى قدم طبيب آخر وعندما أكدّت السؤال عليه، قال أنه أيضاً لا يَعلم شيئاً عنها وهنا جنّ جنوني بما تَحمل الكلمة من تصرفاتٍ غير طبيعية يقوم بها جسد تغطِّيه اللفائف البيضاء، ولم يكن أمامهم غير حقنة تخدير لينقذوني من انهياري العصبي الذي كاد أن يحصل.

وعندما استيقظت في المساء كانت أمامي، إنها مَريم تَرتدي حجاباً أسود وقميصاً أسود وعيناها لَم تجف من الدموع بَعد، تَحركت شفتاي بصعوبة وقلت لها تَكلمي ولم تتكلم.

وعندها وكأن قوة كُل الحزن والسعادة المُندثرة اجتمعت في صوتي وصَرخت بأعلى صوتي "تكلمي".

اهتزَّ جَسدُ مريم وتراجعت هي وكرسيها للوراء قليلاً ثم قالت كلمة واحدة "ياسمين قَد رحلت".. لَم أتعامل مع الموضوع أنه مَفهوم، ولا حتى شعرت بالرعب متوهماً أنها كاذبة مُختلّة، أعلم أن الصرع لا يسبب الموت، قلت لها أنها بلهاء مُدعيّة عديمة الإحساس وبنفس الصرخة التي قلت لها تَكلمي قلتُ لها اخرجي من هنا.. ومن حسن حظها أني لم أكن أستطيع أن أتحرك، كُنت سوف أقتل تلك المُدَّعية، نَظرت لي والدموع تَنهمر من عينيها وخَرجت تاركة معي كلماتها الأخيرة: يمان تَركت حُزني وعائلة ياسمين المُدمرّة كي آتي وأقول لك أن تَبتعد بأسرع ما يمكن لأنهم سيقتلونك، اخرج من المشفى وارحل يمان فسوف ينتقمون، أنت أكثر شيء يَحمل ذكرى أختي ولا أريد أن أخسرك أيضاً، الفرحة

التي رأيتها بعيون ياسمين عندما كانت مَعك لم أرَها من قبل، ولهذا لن أنتقم مثلهم بل أريد الحفاظ على الإنسان الذي جعل عيون أختي تُشرق من جديد.

انقبضَ قَلبي، وأجفاني، وشفاهي، إنّي أختنق!
أنا القتيلُ بلا إثمٍ ولا عدلٍ يُقنعني، فإنه ليس العدلُ أن أقتل وأنا لَم أعش الحياة بَعد!

فَتحت جفوني وانهمرت دموعي، وفُتح قَلبي ونزف دمي، وفُتحت شفاهي وقُلت: لَن أذهب إلى مكان، لَن أذهب إلّا حيثُ يميلُ قَلبي.. أصحابُ القلوب الميتة لا يَتحركون فأنا ضَحية رحيلها.

ومن ثُم صرخت:
- ارحلي من هنا أيتها الحمقاء.

رَحلت مريم وأنا مُلقى على السرير المَقيت ورائحة الكحول تُغطي الغُرفة، وبدأتُ أخدع نَفسي وكُل شيء بعيد عني حَتى أفكاري بَعيدة عني، أنها هناك عند ياسمينتي تحاول أن تَطمئن عنها بأسرع ما يمكن، تمنيّتُ أفكاراً تُبشرني أن ياسمين على قيد الحياة ومريم كاذبة تُريد إبعادي مهما كَلّف الثمن كما قالت من قبل، ولكن هناك في زاوية كريهة من عَقلي يوجد وحش الأخبار السيئة يَظهر ليكيدني، ماذا لو ياسمين قُتلت ولم تَمت بالصرع، وماذا لو حدث شيء لا أتوقعه ومريم محقة، لو كان حادث سيارة في طريقهم للمشفى مثلاً، كُل شيء مُحتمل الحصول.

وبـدأت أدرك أن القتيـل الـذي لا يعلـن عنـه صـوت الألـم تعلـن عنـه رائحـة الجثـة، وهكـذا حتـى أصبحنـا نَعيـش فـي عالـمٍ نُـدرك قَتلانـا بسـبب رائحـة الجُثـث التـي تَصـرخ وتَصـرخ دون أن يَسـمعها أحـد..

سمعت صوت الطبيب وندهتُ له بصوتي المَخنوق:

- أريد إجراء اتصال الآن.

لبّـى طَلَبـي وأحضـروا لـي هاتفـي نَفسـه. أمسـكتُ بـه بيـدي المُرتجفـة واتصلـت علـى رقـم ياسـمين ولكنـه مُغلـق، ولا أملـك رقـم مريـم ولا أعـرف أحـداً هنـا حتـى مَنـزل ياسـمين، ولا أعلـم إن كانـت أسـعفت علـى هـذه المشـفى أو لا وبسـبب ذلـك أعـدت الطلـبَ مـن الطبيـب أن يتأكـد لـي مـن الاسـم لكنـه نظـر لـي وقـال قَـد تأكـدّتُ مـن ذلـك ولا يوجـد هـذا الاسـم فـي المشـفى، كان كُل شـيءٍ معتمـاً أعجـز عـن وصفـه، مـا أدركـه أن قلبـي كان يَخـرج مـن صَـدري ويعـود مَـع كُل نبضـة، كنـتُ التقـط أنفاسـي بصعوبـةٍ فـذة وبلحظـةٍ استنشـقتُ نفسـاً يكفينـي لأطلـق صرخـة بوجـه الطبيـب مـرةً أخـرى:

- تأكـد مـن ذلـك مـرة أخـرة، قَـد كنـا فـي نَفـس المـكان ومـن المنطقـي أن يتـم إسـعافنا إلـى نَفـس المـكان..

أنـزل نظارتـه الطبيـة ونظـر لـي باسـتغراب مـن وقاحتـي، وثـم أعادهـا إلـى عينيـه الضيقتيـن وقـال أن الشـرطة سـوف تَتحقـق بعـد قليـل مـن هـذه الأمـور وتَسـتجوبني لتعلـم مـا سـبب ضربـي مـن قبـل المُعتديـن فـي الفنـدق، صَمـت وبَقيـت رَجفتـي ونبـض قَلبـي السـريع مسـتمرين واعتبـرت ذلـك أنـه فُرصتـي كـي أجـد ياسـمين وأعلـم

شيئاً عنها.. مَضى على انتظاري نصف ساعة وأنا مُثبت الأفكار والعينين بنفس المكان أنتظر أن يفتح أحدهم الباب، وهكذا حتى أتى شخصان من الشرطة أحدهم طويل القامة طيب الملامح جداً وضحوك الوجه والآخر بقي عند الباب ولم يتدخل بشيء، سألني من الذي قام بالاعتداء عليّ بهذا الشكل ولكني لم أجب بل بادلته بسؤال: أين الفتاة التي كانت معي، قال لي أنه لم يَكن معي أحد فَقد كنتُ أنا ودمائي في غرفة الفندق لا غيرنا، صمت قليلاً وبدأت أفكر، إذاً من قام بإسعافي! من المؤكد ليس هم نفسهم من أسعفوا ياسمين بل أنا بقيت على الأرض حتى أتى طرف ثالث أكمل عملية الإسعاف، تَدخل عنصر الشرطة من جديد: من الفتاة التي تتحدث عنها وماذا تفعل في المغرب ومعلوماتك الشخصية كاملة مع الثبوتيات والإقامة إن تكرمت.

بدأت بذكر ثبوتياتي وأن زيارتي إلى المَغرب سياحية ولكني تَوقفت عند سؤاله عن ياسمين، الأمور لا تجري بتلك البساطة هنا بل مُعقدة ولكن لأنه طريقي الوحيد لأعرف عنها شيء فقد أخبرته بما يَجب أن يعلم ولكنه توقف عن الكتابة ونظر لي وبدأ يَستمع، نظرت له باستغراب وتوقفت عن الكلام فأخبرني أن أكمل بلهجة حازمة ولكني رَفضت، قال لي: هل أنت متأكد أنك سوف تخّوض بهذه الدعوى!.. وأجبته: ولكن أنا لَا أريد الإدّعاء بل كنت أريد شيئاً واحداً فقط، أين ياسمين.. أخبرني الشرطي أنه لا إمكانية لمساعدتي إن لم يكن هناك ادعاء لأنه مَحضره هو عن شخص أجنبي أتى للمشفى نتيجة اعتداء جماعي، ولكن الأمر لا يتوقف هنا بل أكمل بلهجة صارمّة أنه في حال الادعاء ليس من البعيد أن يُصبح السيناريو كالآتي: شاب أجنبي وفتاة مَغربية قَد شوهدا في غرفة بالفندق بحالة مُخلة للآداب، ما رأيك أن أوضح لك بشكل أدق: ينص

الفصل - 490 - من القانون الجنائي المغربي على أن كل علاقة جنسية بين رجل وامرأة لا تربط بينهما علاقة زوجية تكون جريمة، ويعاقب عليها بالحبس من شهر إلى سنة، والأسوأ من ذلك أنك تَحتاج إلى محامي وقَضية لكي تَتخلص من التهمة وكل هذا في سبيل أن تَدعي على أخ ضَربك لأنك مَع اخته في غرفة في فندق لوحدكما، هذا جنون.. جنون سواء أكان هناك علاقة أو لا فأنت إن لم تكن متهماً من قبل القانون فمتّهم من قبل المجتمع، أنت والفتاة أيضاً.

نظرت له باستغراب من طريقته المنطقية والجريئة، حَتى تَفهمه للحدث وعدم تَعصبه للفكرة كان مُثيراً للشّك، قاطعته لأخبره الحقيقة أنه لم يكن هناك شيء مخل للآداب بل أستطيع القول أنها صَديقةٌ فقط، إنها فتاة أوصلت لي شيء نَسيته عندما قابلتها، أي شيء من هذا القَبيل.

قال لي أنه لَم يقل أكثر مما سوف تَصل له الأمور عندما يدافع أخ ياسمين عن نَفسه عند مقابلة القضاء وكيف سيتصرف ولن تستطيع نفي ذلك لأنه من اعتدى عليك أكثر من شخص، إذاً أعتبرهم أكثر من شاهد ووافقوا معه سيكون وضعك حرجاً قبل أن يأخذ القضاء مجراه وتتضح الأمور، ثم صَمت قليلاً وأكمل: ما أقوله لك توقعات وتآويلات لما يُمكن أن يحصل إن تَمّ الادّعاء ولك الحرية في ذلك أيها الأجنبي.

رَكز على مخارج الحروف عندما قال أجنبيّ وكأنه يُركز على أني صاحب الموقف الأضعف هنا.

اقترب مني وقال بصوتٍ خَفيف "يبدو أنك تُحبها، ثلاث ساعات وأنا أنتظرك لكيّ تَتوقف عن ترداد اسمها وأنت في سباتك" ثُم ابتسم لي وعاد للخلف، علمتُ حينها أنه يُقدر الحب الصافي، الحب كما هو وكما أوجده الله على الأرض، الحب بعفويته عندما تَنظر إلى فتاة ويَنبض قَلبك دون أن تَعرف دينها وعرقها وقوميتها، لا يَهمُك شيء سوى طبيعتك البَشرية التي تَعشق الجمال المكنون بداخلها دون حواجز المُجتمع، شَرحت له ذلك بطريقةٍ غَير مُباشرة لأستخلص منه الحل لما أنا فيه، لَم يُجبني غير برأي غريب وهو أن يُسجِّل المحضر ضد مجهول وألغي فكرة أن أقوم بالادّعاء من أجل مَصلحتي.

كان من الرائع أن يُعاملني شَخص بهذا الشكل في أزمة أفكاري وارتباكي، ومن ثم أغلق المَحضر وحضّر نفسه للرحيل. أمسكت بيده وعندما نظرَ لي قلت له بصوتٍ يرجو الخلاص: أريد أن أعرف أين هي ياسمين، صَمت لبعض الوقت وبدأ الأمل يَتكون بداخلي ولكنه أفلت يده بقوّة ورَحل دون أن يَقول لي كلمة واحدة. وأمضيتُ ليلتي في المَشفى وأنا أضغط على اسم ياسمين لأتصل بها وما زال الخط مُغلقاً، أتصل باستمرار دون أن أنام للحظة ولم يَختلف شيء، أنظر إلى شاشة الهاتف المحمول وأنا آمل أن تَظهر إشارة الاتصال ولكن ظنّي خاب في كُل مرة، أكرر محاولتي وأنظر والأحزان تتراكمُ في قَلبي ويخيب ظني، ساعة و ثلاث وخمس وظني يخيب وفكرة مريم بدأت تُسيطر عليّ. ياسمين ماتت!..

سحقاً لا، ياسمين لَم تمت بل هي ابتعدت قليلاً لتعود لي في الصباح مع باقة من ورود الياسمين، سوف أفتح عيني في الصباح وأجدها أمامي مُبتسمة

ومُشرقة الوجه، أنا مُتأكد، أنا مُدمر، أنا كاذب، أنا ضائع، أنا أنهار!! وغرقتُ في نوم أليم.

لَم يَنسني الجَحيم الذي يَسلخ قَلبي من مكانه كُلَّ قليل بل استيقظت وكأني لَم أنم لأنظر إلى جهاز الهاتف وهو يرّن، مددت يدي لأجيب وشَعرت أنها خُلعت من مكانها، قَد نسيت أنها مَكسورة. عاودت المُحاولة باليد الأخرى لأجيب وكان رَقماً غَريباً، لكن لأملي أن ياسمين من يَتصل أجبت باسمها، لَم يُجيني صوتها بل كانت مريم تصَبُّ بمزيدٍ من الزيت الذي يُشعل نيران فقداني، قالت لي أن أغادر المَشفى لأن غَضب أحمد لَم يَعد يَصبُّ بأن أخته كانت مَعك بالفندق بل يريد الانتقام منك لأنه فَقدها، وصَرخت من جديد على مسمعها بكل صوتي أنه لَم يفقدها. سحقاً أنا أعلم أنه لم يفقدها أحد بل سوف تُنقذني من ألمي من جديد كما فَعلت من قبل، بدأت مريم تُقسم بالآلهة ورموز الدين والقرآن أن ياسمين قَد ماتت، قَسمها كان سكيناً تَدخل جِسمي وتَسحب كُرسياً من تَحت قدماي وأنا مُعلق بحبلٍ من رَقبتي، إنها تَشنقني وتَخنقني بنواحها، كُنت أعلم أن المتدينين مثلها لا يقسمون بسهولة برموز الدين وإن فعلوا لا يقسمون على شيء من الممكن أن يَنفضح بوقتٍ لاحق وهذا ما جَعل وحشُ الحقيقة يَكبر بداخلي لأدرك رحيلها، انظر حولي إلى جدران المَشفى وأبحث عن مرساة نجاة تُخرجني مما حَصل.. وفي أمل أخير تمنيّت النجاة من الاقتناع بموتها بسبب الصّرع عن طريق الأدلة العلميّة ويا ليتني لَم أفعل ذلك، بَعد بحثي في شبكة جوجل من هاتفي عن حلقات البحث الطبية بعنوان "هل الصرع يُسبب الموت" لَم تصادفني معلومات واضحة تُثبت ذلك لكن توجد دراسة جامعية من مركز أبحاث طبية في السويد قَد أثارت الشّك بداخلي وكانت بعنوان "مرضى الصرع والموت

المُبكر".. خِفتُ من القراءة وبدأت يدي تَرتجف وأعصابي تتلف حتى سَقط الهاتف أرضاً، وخلال نظري إليه وخوفي من أكمل ما قرأت تَذكرت كلمات ياسمين من قَبل عن أنها لَن تدوم طويلاً والحزن مثل سكين يقتلها ونوبات الصرع المُتكررة تُنهك جسدها.

دَخل الطبيب على الغرفة فسألته، هل الصرع يسبب الموت يا دكتور؟ وقال لي لا، ولكن بدا أنه يملك ما يقوله غير ذلك وأكمل: الصرع ليس سَبباً للموت لكن يوجد رابط بين مرضى الصرع والموت المُبكر غير مُثبت علمياً بشكل كامل بل هو حاصل حسب الإحصائيات فَقط.

قاطعته لأستفسر منه: إذاً ما الذي يُسبب الموت لشابة في العشرينات عند تَعرضها لأزمة عَصبية، أزمة تَجعل الحزن يُسيطر عليها بدرجة كبيرة؟ قال لي من الممكن أن تُصاب بأزمة قَلبية مُرافقة لنوبة الصَرع وهذا يُعطي احتماليّة كبيرة للموت.

أعدت نَظري إلى الهاتف الذي يَرن بنفس الرَقم الذي اتصَّل قَبل قليل، إنها مَريم، مُددت يدي المُرتجفة لأجيب بصوتي المهزوم. مريم، هل ياسمين كانت مُصابة بمرض القلب!

صَمتت مريم قليلاً، أخبرتها أن صَمتها يَسحقني فلترأف بحالي، وفعلاً سَحقتني وقالت لي نَعم إنها مُصابة بمرض القَلب، وبكل الأحوال انظر للصورة التي أرسلتها لك.

وسَقط الهاتف من يدي.

سَقط الكون من مكانه وسَقطت الشَمس في صَدري لتَحرقني.

سَقط قَلبي أرضاً ولَم أعده إلى مكانه منذ ذاك اليوم، ما زال في المغرب.

ما زال على أرضيّة المشفى إلى اليوم.

كانت صورة تابوتِ ياسمين وأمها تَصرخ بجانب التابوت بألم والنساء تُمسك بكتفيها لتهدأ وهي تبكي ابنتها الراحلة.

***

توقفت عن القراءة بَعد أن بدأ صوتي يميل للقهر الذي لا يَسمح للدموع للتّحرر من بين جفوني وأغلقت دَفتر ذكرياتي وأخبرت كارولين أن تَذهب من أمامي، لكنها لَم تُجِب وأعدت كلامي دون أن أنظر إليها خوفاً من أن تَسقط دَمعة أمامها ولكن لا جَديد لَم تُجِب لكن صوت نَحيبها أجاب، كانت عيناها غارقة بالدموع ويدها تَمتد نَحوي لتواسيني.

-كنتُ أتمنى أن أكون طفلاً من جديد وأرتمي في حضن تلك المرأة الأوروبية وأعلن حُزني لكن كان شيء ما يَمنعني، ربما هو الرجل الشرقي بداخلي الذي لا يَبكي أمام امرأة، أبعدتُ يدها ووقفت لأذهب إلى أمام نافذتي الزجاجية لأستمع لبعضٍ من موسيقا الآلهة التي عَشقتها، نَظرت للخلف وكانت كارولين تَتصفح الدفتر بشغف وكأنها تَتخيّل ما حدث، كان ما زال يوجد الكَثير من الصفحات المُ لتحمة مع الأحداث الغامضة منها الحَزين ومنها المُؤلم، عُدت إليها لأنهي ما بدأت به ولأتذكر القليل مما عوّض زاوية صَغيرة من فقداني لملاكي.

جَلست جانبها وأخبرتها أني سوف أقرأ لها كيف عُدت إلى الكويت ومن هناك أستطعت القدوم إلى كندا، إنها قصةُ عَجيبة فكما يتآمر علينا الكون ليدمرنا أحياناً كذلك يتآمر علينا ليُنجينا مما اقترفنا، ابتسمت لي فتاتي الأوروبية وأكملت قراءتي من آخر سَطر تَركته.

* * *

بَعد تهديدات مَريم لي بأن أسافر بأسرع ما يُمكن طَلبت حسابي مَع المَشفى لأكتشف أني متورط بمبلغ أكبر من مُدخراتي للعودة إلى الكويت، والوقت كان يبدأ الوقت بالنفاذ مني للابتعاد عن بلاد النَخيل التي أعطتني الحياة وسرقتها مني في يومٍ واحد.

اتصلتُ بصاحب العمل في دار النشر التي أعمل بها وأخبرته ببعض التفاصيل الغير مَفهومة ولكن ما يَكفي لاقناعه أني متورط في دولة أخرى ويجب عليّ الرحيل منها بأسرعِ ما يُمكن، وما سوف يَدفعه لي عبر حسابه البنكي سوف يُخصم من راتبي في العمل، وجرت الأمور على ما يرام كي أخرج من المشفى بيدٍ مَكسورة ورضوض بكلِ جسمي وقلبٍ مَهجور تَحت السرير في المشفى.

قد تَركت في المَشفى قَبل رحيلي وردة طوق ياسمين ورسالة إلى مريم كي تأتي إلى المستشفى وتأخذه لتضعه على قَبر ملاكي، سوف تُنعش رائحة الياسمين قلبها وهي نائمة تَحت التراب وتتذكر زهرة الياسمين الأولى التي شَهدت لقاءنا الأول في المغرب.

عـدت إلـى الفنـدق بقلـب كئيـب، قلـب ذي وجهيـن: أحدهمـا مُدمَّـرٌ متهالـكٌ يـذرّف دمـوع الألـم، والآخـر مُخـدَّر يُكابِـر ويتحمـل شـوقه وندمـه بـكل قسـوة.. تلـك هـي معركتـي التـي طالمـا قهرتنـي داخـل قلبـي المغفـل.

نظـرت حولـي و تنشّـقت هـواء الـوداع، نَسـيم الفقـدان لملاكـي وجنونـي ومَعركتـي، والآن هـا هـو شـهيق الـوداع يمـلأ رئتـيّ ويُلغـي كل أحلامـي، احتلّـت الدمـوع قلبـي وحقنتهـا جُفونـي لتبقـى داخـل صـدري، هبطـت السـماء علـى صـدري واسـتلقت الجبـال مكانهـا علـى كتفـي و تجمَّـدتُ بمكانـي متهالكاً مـن الهمـوم لا أريـد سـوى أن يعـود الزمـان إلـى الـوراء، يعـود ويعـود للحظـةٍ دَقَّ العشـق بـاب قلبـي لكـي أرفـض ومُـن ثـم أكمـل حياتـي بتعاسـةٍ أقـل مـن تَعاسـتي الآن.. أعلـم أنـك تسـمعين ذلـك، وداعـاً، وداعـاً يـا صغيرتـي يـا ابنـة فينـوس.. أيتهـا المـرأة الاسـتثنائية، أيتهـا المـرأة الثائـرة.

بَعـد أن تَحسـنّت حالتـي فـي المشـفى حَجـزت فـي أول طائـرة مُتجهـة إلـى مطـار الكويـت، وعندمـا حـان الوقـت خَرجـتُ نحـو المطـار برفقـة سـائق التكسـي الـذي خَرجـت معـه مـن المشـفى وعقـدتُ معـه اتفاقيـة أن يسـاعدني فـي تحميـل أمتعتـي والذهـاب للمطـار بأجـرٍ يُناسـبه لأراعـي حالتـي الجسـدية المُتعبـة. وقبـل أن ينطلـق التّاكسـي توقفـت للحظـة وتأملـت كل شـيء وأعـدت شـريط ذكرياتـي، بحثـت فـي داخلـي عـن مفتـاح الخـروج إلـى عالـم آخـر و تمعنـت فـي كل شـيء، نظـرت للسـماء وشـعرت بتيـاريـن يخوضـان فـي جسـمي مـن جَديـد، يخترقاننـي مـن أسـفل قدميّ حتـى أعلـى رأسـي، أحدهمـا يدعونـي للسُّـموُّ والآخـر يهبـط بـي نَحـو الجحيـم، ولـم يكـن بتلـك البسـاطة أن أجـد الطريـق نحـو السُّـموُّ، لكـن أعلـم أن ياسـمين تَسـكن بداخلـي الآن، ولأجلهـا سـوف أعتلـي بهـا نحـو السـماء والطمـوح والنجـاح، كانـت

لتفخر بي عندما أصل وهذا يَكفيني، يكفيني أن يؤمن بي أحدهم بصدق لأحتلَّ العالم.

تصاعد الألم إلى صدغ رأسي و ملأ الضباب عيني عندما تحركت السيارة، وبعد أن ترنَّح جَسدي وارتجف قلبي ثبتت عقارب الساعة ولم تعد تتحرك.. ياسمين أرجوكِ، اتركي الوقت يَمضي في سَبيله لعلَّ وطأة رَحيلك تخفُّ على قلبي مع مضيّ الوقت، وبَعد أن أغمضت عينيَّ وأنا في طَريقي للمطار شعرت بأصابعها تربت على كتفي وأنفاسها تقتحم صدري من جَديد، كانت رائحتها وبريق عينيها يملأني وشعرها يلاعب خدودي وعندما التفتُّ ولم أجدها! نبض قلبي بحقيقة رَحيلها وخمد كل شيء بداخلي، وداعاً.

كنتُ أراقب بلاد النَخيل والأشجار الراكعة حزناً والبحر الهائج غضباً كل الطريق، وحين وصلنا تَحَرَّكتُ مثل روبوت آلي أمشي بدون روح ورحلت وتركت كل شيء يرافق كل سنيني: منهم زوجتي التي لَم أجب على اتصالاتها وأنا في المَشفى، ولم أعد حتى أهتم لما حَصل معها، وحتى تاريخي في سوريا وفَشلي وكل أحلامي الضائعة، ملاكي الراحلة وذكرياتي في المَدينة الزرقاء، وزَهرة الياسمين على قبرها تَكفي لأرحل من دون تاريخ، من دون ذاتي ومن دون شيء غير قلبٍ يَنبض بألم الفُراق.. قَد ولدت من جديد في هذه اللحظة لأكون إنساناً مُختلفاً هارباً من حماقة الحياة وحينها فَقط أدركت أني تَخَّلصت من عقدة الذنب والصوت بداخلي بشكلٍ نهائيّ.

أقلعت الطائرة في السماء وبدأ كل شيء يصغر في نظري.

وبَعـد أن مَضـت سـاعات الجحيـم فـي رأسـي بـدأت الطائـرة فـي الهبـوط فـي الكويـت كنـتُ أنظـر مـن النافـذة وأراقـب قَـدري، أتصـارع مَـع ذاتـي الضَعيفـة على فقدانهـا وأتسـاءل!.. هَـل أسـتحق أن أكمـل هـذه الحيـاة البائسـة، أيمكـن أن أعـود لحيـاة روتينيـة مَقيتـة يَـزداد حُزنـي بهـا أكثـر مـن قبـل أو أن الـورود التـي تولـد مـن قَلـب الصخـرة تكـون ذات جـذورٍ أقـوى؟ هـل النجـاح هـو النهـوض بَعـد كل فشـل بنفـس الحمـاس أو أن هـذه جمـل تخديريـة بـدون معنـى ولا تمـسّ الواقـع بصلـة؟ حسـناً لأتـرك كل شـيء يمضـي كمـا هـو ولتأخـذ الحيـاة مجراهـا الآن، حتـى تحيـن اللحظـة التـي أسـتطيع أن أقـرر بهـا مـا أنـا.

[IX]

عُـدت إلـى غُرفتـي فـي السـكن لأقابـل شـركائي فيـه بوجـهٍ حَزيـن يَصطنـع الابتسـامة، وبَعـد ألـف سـؤالٍ مـا بـك وأخبرنـا مـا الـذي حَصـل معـك دَخلـت للنـوم بصمـت دون أن أتفـوه بكلمـةٍ واحـدة، لَـم يطـل الأمـر حتـى أيقظنـي صاحـب العمـل ليطمئـن علـي بَعـد أن علـم أنـي وصلـت إلـى الكويـت وطلـب منـي أن أمـرَّ عليـه فـي مكتبـه بأقـرب وقـت.

وعندمـا قابلتـه بعـد بضـع سـاعات بوجهـي المُرهـق كانـت تبـدو عليـه علامـات الدهشـة والغرابـة عنـد رؤيتـي، لـم يندهـش مـن لونـي الباهـت وجسـمي المرهـق و عينـيّ الحمراويـن بـل كانـت دهشـته أكبـر مـن ذلـك، علمـت حينهـا أن شـيئاً غريبـاً قـد حـدث، لـم يتفـوه بكلمـة بـل رفـع سـماعته وبـدأ بإجـراء اتصـال قـال فيـه جملـة واحـدة:

"قَد وصل إلى هنا الآن"

كان رجـل قَصيـر القامـة بشـعرٍ خَفيـف، وهـو كاتـب كويتـي معـروف يَملـك درجـة عاليـة مـن الثَّقافـة تَسـتحق الفخـر، أخبرنـي وأنـا أنظـر لـه متسـائلاً لكـي أعـرف مـن أخبـر لتـوِّه أنـي وصلـت، أخبرنـي أنهـا زوجتـي كانـت تُريـد أن تطمئـن عليّ لأنـي لا أجيـب علـى اتصالاتهـا، ابتسـمت بحماقـة لأنهـا مـا زالـت علـى قَيـد الحيـاة ومـا زالـت تتأمـل عودتـي ثُـم طَلبـت منـه أن أكمـل أيـام إجازتـي فـي المنـزل وألتحـق بالعمـل بَعـد مـدة لأسـبابٍ خاصـة، أنـزل النظـارات الطبيـة مـن علـى عينيـه وأغلـق الكتـاب الـذي كان بيـده وأخبرنـي أنـه لا يعلـم كيـف يبـدأ بالاستفسـار لأنـه ليـس

ضمن معارفي المُقربة لكن بنفس الوقت قال أنه في كثير من الأحيان يكون الإفصاح للغرباء أسهل بكثير من الإفصاح للأقرباء، طلب مني التَكلم ووعدني بالمساعدة قَدر المُستطاع، لَم أكن بحاجة لمساعدة في ذلك الوقت، كنتُ بحاجة لمعجزة ما تُخرِجُ ياسمين من قبرها، لكن رغم ذلك كان في داخلي رغبة جامحة بأن أخبره كل شيء، قاطع سلسلة أفكاري وأنا أنظر له وقال لي: "أنا استمع".

كنتُ أنظر إليه ولا أعلم ما سوف تكون ردَّةُ فعله، من المُمكن أن يصفني بالأحمق ويطردني من مكتبه ببساطة وهنا تَكتمل الحكاية على أكمل وجه من الخُذلان، ولكن من الممكن أن يتفهَّم نوع علاقاتي وضعف إرادتي كونه شَخصاً مُثقف قارئ قَد خاض بالكثير من الأفكار النهضّوية، إنها مُخاطرة ولكن لن تَكون أكبر من مخاطرتي الأولى، إمَّا أن يتحطّم كل شيء، أو يُبنى كل شيء وهكذا فشل وراء فشل حتى أنجح في يومٍ ما، جَلست متكئاً على ركبتي بساعدي ويدي على رأسي وأصابعي مُتشابكة مع شَعري وقلت له أنَّ ما سأقوله رواية مَجنونة، إن أراد الاسَتماع فليضع كُل شيء جانباً، وليرمِ مَنطقه، عقيدته، أفكاره، تَفسيراته وليستمع فَقط.

وافق على فكرتي مع ملامح الاستغراب والإثارة، قال لي أن كلمة "روايتي" أثارت إعجابه فغيَّرتُ طريقة إخباره بما حَصل لتناسب كلمة رواية أكثر وقررت أن أعطيه دَفتر ذكرياتي الذي دّونت عليه كل شيء من آلامي وجنوني بطريقةٍ أدبية، أخبرته بذلك ورَحلت مع وعدي أني سوف أحضر له دَفتر ذكرياتي بأقرب وقت.

عُـدت للمنـزل وكان أيهـم هنـاك وحيـداً، كان ذلـك الشـاب يتفهمنـي بشـكلٍ غَريـب ولا يخـوض معـي فـي أيِّ جَـدل عـن قراراتـي بـل كان يعنينـي كمـا أعنـي نَفسـي وكأنـه مـرآة لـي. قـال لـي: أنـا آسـف لمـا حصـل معـك.

والمثيـر بالموضـوع أنـه لا يعلـم شـيئاً ممـا حصـل معـي لكنـه يَقـرأ ملامحـي المُنهكـة، ابتسـمت لـه لأذهـب إلـى غرفتـي وأمـارس وحدتـي مـع دفتـر ذكرياتـي وأكتـب آخـر أحداثـي قَبـل أن أعطيـه لصاحـب العمـل، وبَعـد سـاعتين مـن الكتابـة بخطِّـي المُرتجـف المجبـول بالدمـوع قـررت أن أتصَّـل بأهلـي فـي دمشـق بعـد أن تجاهلتهـم بضعـةُ أيـام، أعلـم مـا سـيقولون وأعلـم مـا سـأقول ولكـن يَجـب أن أنهـي كل شـيء.

اتصّلـت بهـم وبـدأ الـكلام والـكلام والـكلام منهـم وأنـا مُتمسـك بجملتـي الوحيـدة "انتهى كُل شـيء" ويَسـتمرون بالـكلام والضغـط والمُبالغـة والإهانـة لـي وأنـا بجملتـي الوحيـدة أحار بهـم "انتهى كل شـيء" سَـمعت منهـم أبشـع وأفظـع الإهانـات والشـتائم والتهديـدات ولكـن انتهى كُلُّ شـيء حقـاً.

عندهـا عَلمـت أنِّـي فعـلاً لَـم أعـد أشـعر بالذَّنـب نحـو أحـد، قَـد رَحلـت نقطـة ضَعفـي مـع بَريـق عيـون ياسـمين مـن هـذا العالـم، وفعـلاً انتهى اتَّصـال مُدَّتـه سـاعة بالاقتنـاع مـن الجميـع أنـه "انتهى كُل شـيء".

كان أيهـم يَنتظـر وراء البـاب بهـدوء يَسـمع صوتـي وأنـا أردِّد نَفـس الجملـة وينتظـر لحظـة يَشـعر بهـا أنـي بحاجـة للمسـاندة، وعندمـا هـدأت الأجـواء دَخـل وقـال لـي:

هَـل يجـب أن أفـرح لـك بقـدرِ مـا أحـزن لأنـه انتهى كُل شـيء! أنـت كنـت تنتظـر هـذا نوعـاً مـا.

ابتسـمت لـه ووقفـت تقديـراً لهدوئـه وصمتـه وكلماتـه القليلـة المُتقنـة وضَممتـه ضمـة أخٍ لأخ وكـم كنـتُ أحتـاج ذلـك، طَلبـت منـه أن يوصـل دَفتـر ذكرياتـي إلـى صاحـب العمـل وعُـدت إلـى فراشـي أخفـي صـوتَ حُزنـي.

- فـي الصبـاح اسـتيقظت علـى رسـالة تَقـول: لَقـد قـرأت روايتـك المَجنونـة بليلـةٍ واحـدة، أنتظـرك.

كان صَاحـب العمـل يَنتظرنـي لنَشـرب القهـوة الصَّباحيـة سـوياً، كنـتُ آمـلُ مـن ذاك الرجـل فرصـةً غيـر دقيقـة الملامـح لكنَّهـا موجـودة.. رجـل ذو سُـلطة فـي الكويـت وصاحـب دار نَشـر الفـرات وغيرهـا مـن المشـاريع الثَّقافيـة، والوصـول لطبقـة المُجتمـع النهضّـوي يَجـب أن يُغيـر مجـرى الأمـور.

لَـم تكـن دار النشـر بعيـدة عـن السـكن، خمـس عَشـر دقيقـة مـن المشـي حتـى أصـل إلـى هنـاك وقـد أمضيتهـا وأنـا أمشـي وأنظـر إلـى العالـم مـن أعيـن فَاقـدة لـروح العالـم. وحيـن وصلـت دَخلـت إلـى مَكتبـه الأنيـق ذي الأثـاث الفاخـر، كان يُلفـت نظـري دائمـاً جوائـزه الثقافيـة ومكتبتـه العَريقـة وتحفـه الفنيـة مـن كل أنحـاء العالـم، جَلسـت بَعـد إلقـاء تَحيـة الصَّبـاح وتبادلنـا بَعـض الحديـث لحيـن وصـول القهـوة.

ابتـدأ الحديـث بإبـداء إعجابـه بطريقـة وصفـي لازدواجيـة المشـاعر فـي النَفـس البشـريَّة، وعـن تأثـره بقـوَّة المَشـهد الأخيـر قَبـل أن أرحـل مـن المغـرب، لَـم يبـدُ أنـه

كان يتوقع أن يصادف هذا العمل الذي وصفه بالأدبي أنه بهذا الإتقان لكن كما وصف لي الفكرة قال:

- ما قرأته في الليلة الماضية لَم يكن مُجرَّد ذكريات، بَل مَلحمة الإنسان مَع ذاته الضَعيفة وأنت نَجحت في تَجسيد تلك الملحمة بالعشق والألم والخطيئة بشكل مُبهر.

كان يتكلم بحماسٍ لَم أرَه إلا في منتدياته الثقافية وهو يحاور الأعمال الأدبية العالمية، بل كان يرى في مذكراتي شيئاً استثنائياً يَستحق المُغامرة، وكانت مُغامرته التي أقرها هي باب النور الجديد.. قَدَّم لي إعتذاره على كُل شيء حصل وأكثر ما أعلى مقامه في نَفسي قوله: مَن يَكتب هذه الكلمات بهذا الصدق لا يريد نَصيحة، لا يريدُ سوى التَقدير على خوضه حَرب مواجهة رذائلنا التي يَسعى لها الجميع.

ومن ثم وقف صاحب العمل ومشّى من وراء مكتبه ليجلس أمامي وينظر في عيني وقال "ما رأيك أن تبدأ حياة تَليق بالطموح الذي يَسكنك؟" كان يَتحدث بثقة كَبيرة تَرسم بسمة تدعو للتفاؤل بين ملامحه الجادة، حَرَّكت حاجبي بشكلٍ يَدعو للاستغراب ليكمل كلامه ومن ثم تراجع قليلاً وأولع سيجارة فاخرة من علبة سجائره المعدنية وقال لي: كُلُّ حياتي أمضيتها في المغامرة بَين توقُّعات النجاح للنُّصوص الأدبية والروايات، وأصبح لي خبرة جيدة بذلك ولهذا سوف أقوم بمغامرة جديدة مَعك أنت.

صَمت قليلاً ثم وقف وبدأ يمشي حولي ويكمل كلامه وعيناي تُلاحقانه من مكان إلى آخر، ثم أكمل:

- الرواية التي تبدأ بقراءتها ولا تتوقف حَتى تَنتهي تَستحق المغامرة والمراهنة، مثل روايتك التي تَحتاج بعض الصياغة والإخراج والإكمال ولهذا ما رأيك أن نقوم بمراهنة تُحقق الربح لكلينا؟!

ما زالت الأفكار لدي غير واضحة ولم أفهم كيف يكون دَفتر مذكراتي بمثابة رواية، وحتى لو كان ذلك آخر شيء من الممكن أن أراهن عليه، لأنه ببساطة أغلى ما أملك وبين أحرفي المُرهقة تَسكن ياسمين، لكنِّي أشرت له بأن يُكمل فكرته كي لا أستبق الأحداث.. وأكمل:

- اسمعني يمان، المُفارقة بيني وبينك بالوسط الثقافي والمجتمع الأدبي لا تَستحُق الذكر بل كلانا نَعلمها، وأعلم أيضاً أن نصف النجاح يرتبط بالاسم الذي يقف خلفه ولهذا إن كُتب النجاح لروايتك يتوجب أن يقف اسمي ورائها، لأوضح لك الفكرة بشكلٍ صَريح وكامل دون أن أدعك تُمارس التوقعات بينما أتحدث.. الذي قرأته في الأمس يُمثل فكرة طالما بَحثت عنها ولم أستطع صياغتها بَعد لأبدأ روايتي الجديدة، وأنت سواء كنت تَملك الموهبة أو لا قَد كتبت تلك المذكرات بكل صدق وهذا أكثر ما يحتاجه روح الكتاب ليكون ناجحاً في وسط القرّاء. الموضوع يا يمان لا يتعلق بفخامة وصعوبة الكلمات العربيَّة بقدر تعلُّقه بصدق مشاعر الروائي الذي يَكتب وهذا مُحقق في روايتك وأنا فَقط سوف أسقط طريقتي الأدبية بتعديل بعض الوصف للأحداث لتناسب سلسلة كتاباتي بالطريقة نفسها.

قاطعته بشكل حاسم، دون تَفكير: "مذكراتي ليست للمتاجرة".

وقَد أزعجتني طريقته القذرة في المتاجرة بألمي وذكرياتي ومشاعري التي طبعتُها على أوراقي بقلمي المتوحِّد مع ذاته.. لربما هو ليس بتلك القذارة، لكنه بالنسبة لي أنا الفَقير ذو الأوراق التي تَحمل آلامي، فهو أكثر من ذلك.

قال لي بشكلٍ مُتسارع جداً بعد أن نظرتُ إليه نظرة تَحدٍّ استمرّت لبضعِ ثواني:

- أعلم قيمة ذكرياتك عندك، وأعلم أنها أرقى من المتاجرة ولكنك لا تُتاجر بها مقابل المال، بَل أنت تُتاجر مقابل حياةٍ طالما حَلمت بها، أن تُكمل دراستك في أفضل الجامعات الأوروبية في كندا!، هذه ليست مُتاجرة بل هذه خطوة جَريئة تَأخذك إلى عالمٍ من النجاح والطموح طالما ياسمين تمنّته لك.

لَقد لعب على وترٍ حادّ النَغمة على مَسمعي، ومَع ذلك ضاقت عينيّ لأفكر بما يقول وأحاول الاندماج مع ذلك العرض الذي قَدّمه علي للتّو، أن أحوِّل مذكراتي إلى رواية يأخذها مني وتُنشر باسمه لتتحول قصتي الحقيقية إلى قصة قالها أحدهم ببضع صفحات مقابل أن أهاجر إلى كندا لأكمل دراستي!.

عندما حاولتُ التَكلُّم قاطعني، ونصحني أن أفكر بالأمر بجديّة أكبر، حتى يخبرني بالتفاصيل كلُّها إن وافقت.. تراجعت عن أفكاري القديمة التي كنت سأقولها وطلبت منه التفاصيل الكاملة ليكون قراري أسهل.

- يمان عزيزي ما أقومُ به هو مُراهنة، مُراهنة على بضاعة كاسدة بدون مُستقبل وهي مذكراتك، وتأكّد أنها سوف تبقى كذلك إن تَمسّكت بها، بينما لديك طموحاً تتوق إليه أستطيع أنا أن أقدمه لك بأن أبدأ لك بأوراق الكفالة الكنسية في كندا عن طريق زوج ابنتي هناك، إنّه مُجنّس في كندا، ويستطيع أن يكفلك بسهولة للهجرة، بالإضافة إلى أنّه مُحامي وهو مَن سوف يعدّل لك أوراقك، لكي يقوم بدعمك لدخول الجامعة لعلوم الحاسوب، وهكذا من عامل هنا في دار النشر إلى طالبٍ في أكاديمية الحوسبة الكندية تقترب من طموحك، وهذا مُقابل صياغة مذكراتك على شكل رواية خلال ثمانية أشهر وربما أكثر، ريثما يتمُّ تَجهيز أوراق الكفالة الكنسية بشكلٍ كامل.

ما أطلبه منك هو أن تحوِّل مذكراتك إلى رواية مُدقّقة، تَملك عُنفاً أدبيّاً مُعينّاً، وذات أبعاد تشويقية صارخة والنصف الآخر من الرواية سوف تَعمل عليه في فترة الثمانية أشهر أو أكثر بينما يتم استكمال أوراق الكفالة الكنسية.

كان عَقلي يوشك أن يَصرخ بأفكاره ورغبته ولكن شيئاً ما يَحتجز شَغفي داخل أسواره! وقلت:

- حسناً، إذاً مُراهنتك هي أن روايتي سوف تحقق لك أرباح في المُستقبل أكثر من تكلفة الهجرة إلى كندا، وهذا طبعاً كونك صاحب دار نشر وتستطيع دعم الرواية بشكلٍ كامل ولك اسمك الكفيل بأن يحقق للرواية رواجاً كبيراً. إنه رهان ذكي أستاذي! "قلت له كلماتي بصوتٍ خَفيف وكأن أفكاري تَخرج من رأسي بصوتٍ عالٍ"

وبَعد قليل زاد الأمر تعقيداً عندما قال لي أن الأمر لا يتوقف هنا، بل أن راتبي طوال مدة عملي على الرواية سوف يكونُ من نصيبهِ ولن يتبقّى معي سوى ما يكفيني لمصروفي الشخصيّ! وعندما نظرتُ له وابتسمت باستخفاف مجهزّاً نفسي للرحيل تاركاً صمتي جواباً له على رفض فكرته، قال لي أن الكفالة الكنسية تُكلف ما يقارب ال 11 ألف دولار! فكان لذلك الرقم صدى في رأسي لضخامته بالنسبة إلى عاملٍ راتبه لا يكفي لادخار مثل هذا المبلغ قبل سنتين أو أقل بقليل! وهذا بدون الأخذ بالحسبان أيّة التزامات.

تَغيّرت لهجة صاحب العمل الرهانية ليستعين بلهجةٍ أكثر تودداً، أخبرني أنه مثلما يريد أن يراهن على روايتي ليأخذها لاسمه، أنه يريد مساعدتي لأني أستحق مستقبلاً أفضل في المُحيط العلميّ.

نَهضت نحو دَفتر ذكرياتي على طاولته وفَتحت صفحاته الأولى بينما هو يتكلم ويتكلم ليقنعني بينما أنا أبحث عن كلمةٍ تقودني نحو برّ الأمان، ووجدتها "اذهب حيثُ يميل قَلبك" إنها كلمة ياسمين التي أعلنتُ جنوني وراهنت بكلِ شيء من أجلها والآن سوف أراهن على كُل شيء لأفقدها، أعشقك ياسمين.. تَركت الدَفتر وأغلقته بَعدما سَقطت دمعة مِن عيني على كلمة ياسمين ورَحلت من مكتبه دون أن يَرصد حزني.

وقَبل أن أخرج قال لي، ألا تُريد دفتر ذكرياتك لتبدأ بالعمل!

استغلّ ضعفي ليؤكد أنه حَصل على مراهنته، وفعلاً قَد فعل ذلك.. وعُدت لأخذ الدفتر بصمتٍ ورَحلت نحو المنزل.

* * *

إذاً هَكذا أتيتَ إلى هنا "قالت لي كارولين لتُقاطع صَمتي الذي دام لدقائق بَعد أن قرأت عباراتي الأخيرة".

- نَعم كارولين هكذا أتيت إلى كندا، قَد بعت مُذكراتي على شكلِ رواية وبقيت ثمانية أشهر أعمل على صياغتها بدون راتب لأحظى بفرصة قدومي إلى هنا. قالت لي كارولين "والرواية ما أخبارها الآن؟"

- الرواية!.. إنها من الروايات المُرشَّحة لهذا العام لجائزة بوكر للرواية العَربية، قَد نالت رواجاً واسعاً باسمها الذي اخترته لها " قَلمي وأوراقي تَتكلم."

بدأت كارو وصف نجاحي كأحدِ أفراد فريق الأبحاث في الحوسبة الكموميَّة في الشركة ومشاركتي في مدَّونة الشركة لتبسيط العلوم في الحاسوب والتكنولوجيا وكل ذلك يترافق مع تعليمي الجامعي لتهوّن عليّ فقداني للرواية، ابتسمتُ لها وأخبرتها أني أعلم وأفتخر بذلك لأني طالما آمنت بداخلي أن العلم والإبداع يتماشيان مَع كُريَّات دمي الحمراء.

اقتربت مني ووضعت رأسها على كَتفي وقالت لي "مُبدعي الحَزين" ومن ثُمَّ بَعد صمتٍ دام عدة للحظات وأنا شارد طَلبت منّي أن أكمل، كنتُ أملك فراغاً في دفتر مذكراتي لأني في فترة الثمانية أشهر ونصف التي قَضيتها في كتابة الرواية وصياغتها في الكويت لَم أكتب شيئاً عَن مذكراتي.

- حسناً كارو، سأقرأ لك ذكريات قَريبة وأنتِ من ضمنها، مبدئياً عديني أنك لن تَغضبي عندما تَسمعيني وأنا أقول تلك الفتاة الأوروبية المُغفلة وأنا أقرأ، وابتسمتُ لها لتشاركني ابتسامتي وتهددني بمزاح سوف أقتلك إن مَثّلتني

كشخصية مغفلة وبكل حال أعلم أنك تستفزُّني فقط ولَن تفعل ذلك، نظرت لها مُعجباً بثقتها وأكملتُ قراءتي منذ اللحظات التي وَصلت بها إلى كندا.

* * *

وفى صاحب العمل بوعده بَعد أن أستلم مني الرواية بالشكلِ المَطلوب وسافرت إلى كندا مودّعاً كُل شيء، روايتي وعملي وماري التي لَم أعد أعلم عنها شيئاً غَير أنها ما زالت على قَيد الحياة بَعد أن أنهينا أوراق الطلاق.. وكم شَعرت حينها أني مُغفّل وأحمق! وانطلقتُ نحو حياةٍ جَديدة، قَد هاجرت مثل طير ترك عشّه في غابة تحترق وانطلق نحو غابةٍ تَحترم أجنحته الحُرّة أكثر، ذاك الطير يعلم أنه لن يعود و يعلم أن غابته القَديمة لَم تعد صالحة للازدهار وإنبات الورود من جديد. وها أنا أعلم أني أحتاج الكثير لكي يَنبض قلبي من جديد مثل زهرةٍ تُفتّت الصخر لتصعد نحو ضوء الشمس، وأهم ما في الأمر في بدايتي الجَديدة أنّي تَخلَّصت من الصوتِ القَبيح في داخلي، صوتٌ موبوء وقلبٌ مغفل!!

غابت الشمس و أشرقت عشرة شهور وأنا أرتب أوراقي مَع زوج أخت صاحب العمل لأسجّل في الجامعة وقَد حَدث الأمر بشكلٍ لا يُصدق، قَدَّمت على اختبارات اللُّغة الانجليزية وحَضّرت أوراقي الجامعية القديمة للتعديل وزوج أخت صاحب العمل جَهّز كُل شيء لأكون طالباً في جامعة ألبيرتا كما وعدني صاحب العمل وهي جامعة قائمة على البحث العلمي، تقدّم أكثر من 200 برنامج دراسي للمرحلة الجامعية و170 برنامج دراسي لمرحلة الدراسات العليا، تقع جنوب مبنى المجلس التشريعي في أحد أطراف الطريق المشجّر وايت،

وهـو أحـد معالـم مدينـة إدمنتـون بمقاطعـة ألبيرتـا، حيـث يشـتهر بتعـدّد المحـلات والمطاعـم والمقاهـي التـي تناسـب كلّ الأذواق.. كان حـرم الجامعـة الرئيسـي يتكـون مـن مسـاحة خضـراء هادئـة محاطـة بمبانـي حديثـة زجاجيـة وفولاذيـة مُخَصَصَـة للهندسـة والعلـوم والطـب فـي كنـدا.

وبدأ الحلم يتحقق!

بـدأ الحلـم فـي أشـهر دراسـتي الأولـى فـي الجامعـة، فـي تلـك الفتـرة أُعلِـن أن شـركة كوريـل corel توفّـر فرصـة عمـل للطـلاب لتدعيـم التَدريـب الجامعـي «القسـم العملـي»

تلـك الشـركة أسسـها مايـكل كوبلانـد Michael Cowpland فـي 1985، وأُسِّسَـت بدايـةً لتكـون مختبـر أبحـاث. (جـاءت تسـمية كوريـل مـن اسـم صاحـب الشـركة الدكتـور مايـكل كوبلانـد والـذي يعنـي كووبلانـد للأبحـاث وسـجّلت الشـركة نجاحـاً منـذ تأسيسـها فـي أوائـل 1990 لتصبـح مـن أكبـر شـركات البرمجيّـات فـي كنـدا.

تـم إعـلان موعـد الاختبـار ليجهّـز الطـلاب أنفسـهم ومـرّت خمسـة أشـهر مـن التحضيـر، شَـهران لَـم أكتـب فيهمـا مذكراتي لأنـه لا وقـت لـديّ، لا أتذكـر أنـي فعلـت شـيئاً غيـر الدراسـة والدراسـة مثـل أسـيرٍ يُراهـن على حياتـه، القهـوة والكتـاب والأقـلام والحاسـوب ولغـات البرمجـة قَـد احتلتنـي وأخـذت مـن نصيبـي 10 سـاعات وربمـا أكثـر يوميـاً، قَبـل النـوم أتذكـر مـا خَزنـه عَقلـي وبلحظـة انتصـبُ فزعـاً لأنـي نسـيت بعضهـا وأتوجـه نحـو حاسـوبي، ومضـت الأيـامُ على الأسـير ليُنقـذ نَفسـه وفعـلاً أنقذتهـا بالنجـاح فـي الاختبـار بعلامـة جيـد، لكنهـا كانـت كافيـة لأكـون ضمـن قوائـم المُتدربين

في الشركة بين كمّ المميزين الذين سُجّلَت اسمائهم على القوائم، كان وجودي يُثير الاستغراب لأني الطالب الأجنبي الوحيد هناك، وأكثر ما يُثير الاستغراب أن الفَرق الدراسي بيني وبينهم عملياً مع مراعاة المَنهج السوري والمَنهج الكندي في التَعليم يقارب الضعّف، ولكني نَجحت وتَحررت في أول خطوةٍ نحو التَدريب العمليّ في الشركة.

من المَتعارف عليه أن المُتدربين المُميزين يتم تَثبيتهم في الشركة كموظفين إذا ما أثبتوا فعاليتهم وتلك هي مُراهنتي الثانية التي سوف تُعلن عنها الشَركة بَعد سنتين وهي فَترة التَدريب.

عندما كنتُ أدخل الشركة وأرى التَقنية العظيمة التي لا أعرفها سوى بشكلٍ نَظري ينتابني الخوف من الفشل لكنِّي أملك ما يَدفعني من الداخل لأستمر وأركز على كل شيء وأكرّس عَقلي ووقتي للوصول عَبر كُل كلمةٍ أسمعها ومعلومةٍ أتلقاها، كنتُ شخصاً كَثير السؤال فضوليّ وهذا ما سبب الإزعاج للبعضِ في الشركة وما سبب الإعجاب للبعض الآخر، عندما أستيقظ في كلِ صَباح وأذهب إلى الجامعة أكون مثل عامل المَنجم الذي يَبحثُ عن قطعة ألماس، من المُمكن أن يبحث عنها كُل حياته على أمل أن يجدها في يومٍ ما ليُصبح من الأثرياء ويعود إلى منزله حاصداً جهد السنين، ومن الممكن أن يبحث عنها كُل حياته وقَبل ضربة المعول الأخيرة يَفقد الأمل ويعود لمنزله مع فشله وفقره. وأنا كنت كذلك.. كنتُ أبحثُ عن قطعة الألماس بين الأفكار لأثبت نَفسي، أستيقظ لأبحث وأعود للنومِ مُتحمساً للغد لأستمر بالبحث دون مللٍ أو كلل.

النَجاح هو فعلياً النهوض بَعد كُل فشل بنفس وتيرة الحماس، هو الإيمان بأن الذات قَادرة وتستطيع، أو كما قال العظيم الراحل ستيفن هوكنغ:

على الرغم من صعوبة الحياة التي تبدو عليها إلا أن هناك دائماً شيئاً يُمكنك أن تقوم به وتنجح، الأمر المهم أن لا تستسلم أبداً.

وأنا لَن أستسلم أبداً طالما أنّي أؤمن أن هناك شيئاً يُمكنني القيام به، لا أخفي أننا جميعاً انطفأ في داخلنا الضوء، منّا من اعتمدَ على العصا ليتحرك في الظلام ومنّا من جَلس مكانه يَنتظر الموت ولكلٍّ منّا عصاه، ربما هيّ قَلم! رُبما علم وربما عَمل وربما أمل وربما طمُوح، رُبما شخص هو حبيب أو صديق، وربما طفل و.. وربما شخصٌ راحل ما زال يُعطينا الأمل.. ولكن مهما كانت تلك العصا لابُدّ من أن توصلنا نحو الفُسحة المضيئة في حياتنا.

- دوّنت تلك الكلمات على سَقفِ غُرفتي، وصورتها لتكون خَلفيّة هاتفي وتُزين سطح المكتب في حاسوبي، وإن تَطلب الأمر كنتُ أريد أن أوشمها على يدي لتلاحقني أينما أذهب دون أن يسيطر عليّ فقدان الأمل لكني تَعقلتُ قليلاً، بدأت مع الأيام تَزداد مهاراتي البَرمجية وقدرتي التَحليلية في المَشاريع العملية وكنتُ على وشك الدخول من باب المُتصدِّرين في فرقة التدريب الجامعية التي تَبنتها الشَركة، كان المَسؤول على تَوزيعنا يُسمى راندي كلانت، كان رجلاً ثلاثينياً طويل القامة ورفيع الكَتفين، تُميزه عينان زرقاوان من خلف نظارته الطبية الأنيقة والمتناسبة جداً مَع وجهه النَحيل وذقنه الملساء، كان مُدير القَسم التأهيلي في الشَركة مَع مجموعة مهندسين مساعدين له في عمله، وهو الشَخص الذي يُشكل خطوةً أخرى في مَسيرتي المَهنية كما كان يُشكل الدكتور أحمد الربيعي

عَقبة يَجب اجتيازها في جامعة دمشق، كان يَملك المُهندس راندي طريقةً غَير مفهومة في اختيار الأشخاص من خلال أسئلة تُحفز العقل البشري على التَحليل وأحياناً يَستخدم مواضيع جانبية لدراسة المَنطق وكمّ الطموح في ذات الشخص المقابل قَبل أن يتم تَقييمه مرافقاً لنتائجه العملية في الفعالية في الشركة، كان ذلك يُشكل مفتاح دخول أكثر سلاسة لي لاجتياز عَقبته التي تُحاكي طَريقة استثنائية في التَقييم.

أعود إلى المنزل وأدرس طُرق التَنمية التحليلية للعقل البشري وأعتمد على الألغاز البَسيطة والمُعقدة بنفس الوقت لتحصيل نتيجة الذكاء والمنطق لدى كُلّ شخص وأحاول البَحث في كلّ كلمة يقولها لنا متوقعاً أن تُعاد في أيّ وقت لأكون من المُجابهين في الحوار على دارية كاملة. وخلال شهرين من اتباع نَفس المنوال قَد نَجحت بأن أجابهه بنقطةٍ تُحسب في مَلعبي وهي الحوسبة الكميّة التي أمضيت ثلاث سنين في سوريا أدرسها لأقدمها كحلقة بحث مُقدمة للمنهج التعليمي السوري، عندما سَمع شَرحي عن فكرة الحاسوب الكمومي وطريقة الاستفادة منه سألني بشكلٍ مُباغت بَعد أن لَفظ اسمي المُسجّل على بطاقة الانتساب المُعلقة على عنقي:

- أتظن برأيك أن الحواسيب الكميّة سوف تَخدم البشرية، لا لا هي بالتأكيد سوف تَفعل لكن لأيّ حّد من المُمكن أن تَخدم البشرية؟

جَميع ما عَملت عليه قَد حان وقت نَيله الآن، كان سؤال المُهندس كلانت مخطئاً من ناحية ما، وطَريقته تُثير الشّك من حيث الصياغة "لا لا هي بالتأكيد سوف تَفعل" والحقيقة أنه يُشير لي لنقطة مُهمة على عكسِ ما يقول وأنها لا

لا لَن تَفعل فالحاسوب الكمومي ذو حَدّين وإن استُهلِك من سلطة غَير شَرعية وغير مُراقبة دولياً سَوف يؤدي لفقدان اتزان عالمي، وإن كانت تلك السُلطة هي الشَرعية وهي المُراقبة لذاتها سُلطة تستغل التكنولوجيا لمصلحتها الخاصة بطرق غَير أخلاقية سوف تكون الكارثة الكبرى، بَعد لحظاتٍ قَليلة من الصمت لأركز أفكاري تَقدمت خطوة واثقة نحوه وبدأت كلامي بطريقةٍ صَادمة بَعض الشيء:

لَيس بالتأكيد سوف تَفعل ذلك أستاذ كلانت بل الأمر يَتوقف على السُلطة التي تُسيطر على الحاسب الكمومي فائق الأداء، لأوضح أكثر وبشكلٍ أدق، الحاسب الكمومي الفائق يَستطيع تَقديم مليارات الاحتمالات المتوازية بوقتٍ واحد، ولنفرض أني أنا الحاسب الكلاسيكي العادي وصديقي هنا براد هو الحاسوب الكمومي ونَحن نَحكم مَجَّرتين في الفضاء، سَوف يأتي الأمر منك بأن نَبحث عن فتاةٍ شَرقية سمراء وساحرة العينين اسمها ياسمين. "لا أعلم لم قُلت ذلك ولكني أردت أن تُرافقني ياسمين في هذه التَجربة المُذهلة لأثبت نَفسي". أنا هنا أمثل حاسب كلاسيكي يَملك عدداً من الاحتمالات بشكلٍ غَير موازٍ وهذا يَعني أن لديّ احتمالية 50% أن أجد ياسمين في المجرة الأولى بَعد أن أبحث في بلايين الكواكب واحداً تلوَ الآخر وإن لَم أجدها سَوف أنتقل إلى المَجرَّة الثانية التي تَحمل أيضاً احتمالية 50% ولكن مؤكدة لأقوم بنفس العملية وأبحث بين بلايين الكواكب واحداً تلو الآخر حتى أجدها.

لكن صديقي براد هنا الذي يُمثل الحاسب الكمومي يَستطيع البحث بشكلٍ موازٍي وهو أن يَبحث بين بلايين الكواكب في المجرة الأولى بنفس اللحظة، ولنضع خطاً أحمر تحت كَلمة بنفس اللحظة، وهكذا سَوف يَجد ياسمين قَبلي

ولربما يجدها وأنا ما زلت في الكوكب الثالث من أصل بليون كوكب في المجرة الأولى فَقط.. "تَوقفت عن الحديث ونظرت إلى براد بحقد، يَستحيل أن أجعله يَجد فتاتي قَبلي، سحقاً كان يَجب أن أعكس الأمثلة. ومن ثم حولت نَظرتي لنظرة ودودة وأكملت".

حسناً سيد كلانت الآن لنسقط نَفس الفكرة على احتمالية إيجاد كلمات السّر لحسابات البنوك العالمية، قواعد السيرفرات الرئيسية للبيانات، أنظمة الحماية الخاصة بالوزارات وأمن المعلومات، هَل تَتخيل أن كلمة سرٍّ سوف تَصمد للحظة أمام هذه الإمكانية من تَقديم الاحتمالات بنفس اللحظة، هل تتخيل اختراق قواعد البيانات والحسابات البنكية العالمية من قبل سلطة غير مشروعة وما الكارثة التي سوف تحدث! ويجب ذكر أن فكرتي تبعاً للمستقبل البعيد إن تَم تطوير التَقنية بشكلٍ فائق، وكما تَعلم أن تطوّر التكنولوجيا مثل لعبة الهيلا هوب، لا يُمكن توقعه، بكل حال سيد كلانت إن كانت فكرتي غير واضحة أملك حلقة بحث علمية كاملة عن الموضوع بشكلٍ مبسط وأكاديمي بنفس الوقت، منذ سنين وأنا أحلم بتبسيط العلوم لتكون بمتناول الجميع وخاصة علوم الحاسب.

انتهيت من الكلام وعُدت أدراجي أنتظر فَك القيود لأربح رهاني أنا وياسمين التي رافقتني في تلك التَجربة، كانت نظراته مُستهزأة بكلِ شيءٍ قُلته وبدأ الارتباك ينهال عليّ للحظات ولكنِّي سرعان ما أدركت أنه رجل غَريب، كُل شيء يَنطبع على ملامحه لتتحكم بالاختبار، كلامه ونظراته وأسئلته الغريبة كلها اختبار. وعند استعادة تلك الأفكار التي كنتُ على وشك فقدانها عاد الاتزان والهدوء إلى ملامحي ونظرت له بكل ثقة مَع ابتسامة تَزيد جُرعة ثَقتي بنفسي.

التفت لنكمل جولتنا دون أن يُجيب بكلمة، مضت ساعة وأنا أركز على كل حركةٍ منه وكُل كلمة وأفكاري مُعلَّقة بألف احتمال لماذا لَم يجب بكلمةٍ واحدة، وها نُصف ساعةٍ أخرى تَمضي وأنا أنتظر دون أن أسمع منه غير الشروحات عن العمل والشركة.. وفجأة نظر إلي وسألني بشكلٍ مُتسارع: برأيك كَيف لنا أن نضمن أن أفكارنا وصلت إلى الآخر وتَمّت عَملية الاستقبال بشكلٍ كامل إن لَم نرى ردّة فَعل المُستقبِل!

وبمثل سرعته قُلت له: لا يوجد لكن بكل الأحوال البَرمجة الصَحيحة لا تَحمل الخطأ، إن وثقت بطريقة برمجة الآلة فآخر شيء مُمكن أن أهتم له هو إشارة الاستقبال، فَقط الغير واثقين والمتدربين يَهتمون لذلك قَبل إرسال المَعلومة نحو المُستقبل "المَشروع".

كُنا نَتحدث بلغةٍ ومُصطلحات تَخلط لغة الحاسب مَع المُعاملة البَشرية، كانت إجابتي رائعة تَحمل شغف الثقة لدرجةٍ أني صُدمت أن تجاوزت نَفسي قليلاً، التفت إلي وقال: الآن تَستحق كلمة أحسنت، والتفت إلى مساعدته السمينة التي تُسجل الملاحظات دائماً ومن ثُم أخبرنا أن جولتنا انتهت ونَستطيع مُرافقة المهندسين لتوزيع العمل والتدريب.

لَكن هذه المرة فُرزت إلى قسمٍ مُختلف وعندما تَيقَّنت قليلاً أين أنا أدركتُ أني في قسم بَرمجة الحوسبة الكميّة، كان يوجد في الشركة فَريق واحد مُختصٌّ بتلك المُعضلة من كافة أنحاء العالم وكان مُجرد اللقاء بهم يُشكل سعادةً لا توصف.

ومَضت أيامي إلى حين موعد انتهاء الدورةِ التَدريبية الأولى حَتى عاد إلينا المهندس كلاندي وأعلن 33 اسم من أصل 68 اسماً من المتدربين ليتركوا بريدهم الإلكتروني ومعلوماتهم الشَخصية قَبل رَحيلهم، وكنتُ بَينهم.

إني أجدُ نَفسي الضائعة بَين تَسارع الأحداث على الأوراق، لكن في الحقيقة قَد مرت في الواقع ببطءٍ شَديد وجهدٍ يَستحق الفَخر، والآن أنا المُتحكم بذاتي، أصرخُ بطموحي في وجه الجَميع دون رَجفةٍ تُقصيني، وأعتلي غيوم الشتاء لأرى كُل شيءٍ صَغيراً أمام طموحي.

[X]

وفي صباح مليء بالحماس المُعتاد يحمل حُقنة أخف من الألم، مَددت يدي نحو مُنبهي المُزعج لأطفئه وأنهض إلى قَهوتي وموسيقاي الفيروزية وكُتبي وتحضيراتي، كنتُ أرتّب كل شيء بما يَحلو لي ولمزاجي المُتقلب وكأني ألاحق الحظ هنا وهناك وبأي مكان، أفتح نافذتي وأستنشق هواءً أتخيل أنه آتٍ من الشرق وأستمتعُ به لأبدأ يومي من جديد وأعود لأمام حاسوبي، وأول شيء يُفترض أن أقوم به كشخصٍ طَموح يَبحث عن فُرصته المُنتظرة ويلاحق وعود الجَميع هي أن أتصفح بريدي الإلكتروني قَبل الذهاب إلى الجامعة، كان البريد الإلكتروني مرتبطاً مَع أكثر من جهة قَدَّمت عليها طالباً للعمل أو التدريب وأهمها الشركة التي قَضيت بها فترة التدريب وأختاروا اسمي ليكون في قوائهم. حسناً لنبدأ، لا جديد، لا جديد، إعلانات من Google وإشعارات وبعض الرسائل الترويجيّة من المواقع.. إلخ.

في تلك اللحظة وبعد أن انتهيت من البحث اجتاحني بعض الفضول بأن ألقي نظرة على منظمة ثورة الوعي التي تَركت إدارتها قَبل أن أسافر إلى المغرب وسلَّمتها لبعض الأصدقاء الوهميين وبقي حسابي راكداً غير مُفعل، لَم يتغير شيء بل كانت ما تزال تُعلن شعارات التحرر والعلمانية والأفكار النهضّوية وحرية الرأي والاعتقاد بنفس القوالب بحداثةٍ أكبر بقليل، وياسمين بحسابها الوهمي المُسمى "hanan ma " وصورتها المُميزة وحوراتها القَديمة ما زالت جامدة كما جَمد الدم في عروقي عندما بَحثت عن اسمها، بالرغم من اقتناعي الكامل

بفقدانها ولكن لا زال شيء يُحركني نحوها لا أدركه، إنه الإيمان بالمعجزات لكونها قشّة النجاة الوحيدة.

صوت رسالةٍ جَديدة على البريد الإلكتروني، فَتحت رسالتي وأنا أجهز نَفسي للنهوض وأرتشف آخر رشفةٍ من فنجان قهوتي لكي أنهض نحو الجامعة، ولكن الرسالة غَيَّرت كل شيء، جَعلتني أسند نَفسي للكرسي وأفتح عيوني قَدر الإمكان لأقرأ اسم المُرسل الذي أنتظره، كانت الرسالة من شركة كوريل تطلب مني أن أحضر إلى موعد المُقابلة في الأسبوع القادم من أجل إجراءات القبول في العمل في الشركة مع فئة يطلقون عليها اسم "ذات الفعالية المُبكرة" ويقصدون بها طلاب الجامعة الذين لَم ينهوا تَعليمهم ولكنهم ذوو فعالية ممتازة في المجال العملي والعلمي وكان اسمي بينهم، كان موعد المقابلة في نفس ولايتي بشركتهم بعد تسعة أيام بالضبط في الساعة العاشرة صباحاً، عُدت للوراء ورفعت رأسي للأعلى لأقرأ جُملتي التي طبعتها على سَقف غرفتي، تلك الجملة التي اقتبست فكرتها من العظيم ستيفن هوكنغ لأعلم أنّي أستطيع وأستطيع مواجهة هذه الحياة وبدأت أردِّد وأنا أنظر لكلماتي تساؤلاتٍ مَشروعة:

كم أحمل من الأفكار الفذّة!

كم تلك الطاقة بداخلي تتضخم ثانية بعد الأخرى!

كمْ سَوف أكون أنا كما أريد أنا بدون أقنعة بل أنا بطاقتي ونجاحي وتَغييري لهذا العالم!

مضت التسعة أيام كما سابقتها والأشباح تطاردني في ليال سوداء داكنة، أشباح تحتلُّ غرفتي وتصدر أصوات بكاء محروقٍ من القهر والكره لتاريخي!

ورغـم كل ذلـك الألـم الـذي يؤرقنـي أعلـم أن شـمس الصبـاح تشـتت كل شـيء، لَكـن الفَـرق بينهـم أن تلك التسـعةُ أيـام كنـتُ أحمـل الأمـل بحجـمٍ أكبـر وثقـةٍ أكبـر يخولنـي أن أطـرد الأشـباح طـردَ الحاكـم للمُخربيـن فـي مَملكـة أفـكاره.

وفـي كل الأحـوال لا أحـد منـا يَنـام بسـرعة بـل الجميـع يَتذكـر، يبتسـم أو يبكـي ومـن ثـم ينـام.

بـدأت بتجهيـز مـا عملـت عليـه فـي السـنوات الماضيـة مـن مشـاريع تقديميـة وكأنـي أخـرج عصـارة جهـدي مـن صنـدوق مُعتـم إلـى ضـوء النهـار، ومضـت الليالـي التسـع وأنـا أنظـر كُل يـوم إلـى جُملتـي المُميـزة حَتـى حـان الصَبـاح المُنتظـر.

وكـم مـن حيـاة داخـل الحيـاة وكـم مـن بدايـة بعـد كل بدايـة وكـم مـن جحيـمٍ داخـل جَحيـم وجحيـم بعـد جحيـم وفـراقٍ داخـل فـراق وكل منهـم بَعـد الآخـر لنعيش فـي دوامّـةٍ تَنتهـك فينـا كُل شـيء وتعطينـا كُل شـيء.

حَضَّـرت نَفسـي ورتبّـت أفـكاري باتـزان وراء حماسـي وسَـلكت طريقـي نَحـو مَكتـب الاسـتقبال فـي الشـركة، عندمـا دَخلـت بابتسـامتي وحماسـي كان الجَميـع ينظـر لـي باسـتغراب وكأن مـن الواضـح كـم هـذا الشـخص مُبتـذل بابتسـامته، وقفـت أمـام المَكتـب الزجاحـي أنتظـر أن ألفـت نظـر تلـك الفتـاة العشـرينية وبـدأت أتفحـص زوايـا المَكتـب وأناقـة أثاثـه وفخامـة تفاصيلـه، التفتـت نحـوي فتـاة شـقراء بشـعرٍ قَصيـر وبدلـةٍ رَسـمية أنيقـة لَطيفـة الملامـح، قالـت لـي بـكل لباقـة، أهـلاً وسـهلاً كيـف أسـتطيع مسـاعدتك:

- لدي مقابلة، تلك المُخصصة لمبادرة فريق " ذات الفعالية المُبكرة ".

رَحبّت بي وطلبت مني الجلوس بينما يحين موعد الدخول إلى المُهندسة كارولين غيتس.

* * *

قالت لي كارولين بكل حماسة في تلك اللحظة: هذا أنا. وأجبتها مازحاً: لا لا إنها كارولين غيتس أخرى دعيني أكمل قراءتي.

ابتسمت لي واقتربت مني لتستمع ماذا كتبت عن لقائنا الأول وكيف قُمت بوصفها عندما رأيتها لأول مرة، وأكملت القراءة:

وعندما حان الوقت ندهت على اسمي فحَملت أوراقي وحاسوبي المَحمول المُحمّل بمشاريعي ووضعت طموحي على كفِّ يدي مثل الكفن فإما أن أرميه أو أرتديه وهكذا دخلت لأقابل تلك الشخصية الأخيرة التي سوف أراهن على نيل إعجابها، في أول لحظة دَخلت بها المكتب كانت مُستديرة نحو حاسوب مَكتبيٍّ تُنجز بعض العمل، قالت لي تفضل دون أن تنظر لي ودون أن أدقق بملامحها وتفضلت وجلست قريباً من مكتبها، وعندما التفتت لي قالت بكل لباقة أعتذر على التأخير.

كان ذلك يثير إعجابي جداً في كندا، أقصد احترامهم الواضح لكل الأشخاص دون وضع المصالح في ميزان الحسبان، بل أخلاق لا تتجزأ مع الصغير والكبير والعامل والمدير.

كانت كارولين غيتس شابة تجاوزت الخامسة والعشرين من عمرها ذات جاذبية وأنوثة مميّزة وممزوجة بالجدّية المُفعمة، ذلك المزج بالملامح يُذكرني بفتاتي الشرقية ولكن هذه المرة بنسختها الأوروبية، كان شعرها مَفروداً بأناقة ويوجد خُصلة تَفترق عن كُل الخصال لتنزل فوق حاجبها المَرسوم، تلك الشقراء الجميلة رهان يَستحق الربح بكلِ النواحي على ما يبدو.

بدأت حديثها وهي تقرأ بعض البيانات عنّي في حاسبها وأنا أتفحص ملامحها بخجل وحذر خوفاً من أن تضيع مني أفكاري:

- أهلاً بِك في شركة كوريل، قُدِّم لك منذ تسعة أيام رسالة قبول لطلبك على العمل مع الشركة بشكل تطوعي تبعاً للعرض الذي قدّمناه للطلاب في جامعة ألبيرتا الكندية المُسمّى ذات الفعالية المُبكرة، حسناً سيد يمان نحن هنا هدفنا تنمية الخبرات الشابة ذات الطموح المتألّق في مجال الحوسبة والتكنولوجيا، أهلاً وسهلاً بك مرة أخرى وإذا كنت تملك أي استفسار قَبل البدء بمقابلة العمل تفضل.

كان صوتها ولكنتها بقمة الجَدّية ولكنها مُصطنعة بعض الشيء، إنها تُحاول الابتذال قدر المُستطاع لإظهار صورة المرأة الإدارية ذات الشخصية المُميزة رغم صغر عمرها نسبة للمكان الذي تملؤه، أجبتها بالشكر على مقدمتها والنفي لسؤالها الأخير لتستمر بحديثها ونبدأ مقابلة العمل.

مضت حوالي النصف ساعة على المقابلة وكانت كل الأمور على ما يرام، لقد تلقَّيت بعض الصدمات التي أربكتني منها وشَعرت أني لم أكن بالمستوى

الذي أتخيله وأن ثقتي وطموحي طغيا عليَّ بَعض الشيء لكن مشاريعي المُصغَّرة والبيانات التي قدَّمها المهندس كلانت عنّي قَد عدّلت الموضوع بعض الشيء، إنها كافية لتوضح مستوى الطموح والجهد الذي بذلته من قبل وأعتقد هذا أهمُّ ما في الأمر بالنسبة لشركة تتبع هذه السياسة كأولوية في تعيين موظفيها، وقبل انتهاء مقابلة العمل بدقائق وجَّهت لي سؤالاً غريباً:

- هل طموحك يصبُّ هنا في كندا أو أنك سوف تعود إلى وطنك لكي تقدم خبراتك التي تلقيتها وتسعى إلى تحقيق التقدّم العلمي على مستوى سوريا؟

كانت تطرح السؤال بحماس مَكشوف لأنها كما ذكرت من قبل لا تملك خبرة في العفوية بل تعتمد على الابتذال المَفضوح، شَعرت أنها تعامل السؤال وكأنه سوف يحدد نَتيجةً حتميّةً في الموضوع. وبدأت بالتفكير بأبعاد ذلك السؤال لكن عقلي المُفعم بالتشويش في تلك اللحظة أخذني إلى مكان آخر، أخذني إلى ألم قديم هربت منه بعبارة "كُل شيء قَد انتهى" ولا أفكر بالعودة إلى هناك أبداً. بعد لحظات من الشرود قاطعتها كارولين غيتس باصطناع سُعال خفيف لتلفت نظري، عدت إلى ما أنا فيه وأنزلت رأسي لكي لا تفضحني عينيَّ وقلت:

- ربما سوف أعود إلى وطني في نهاية المطاف، الوطن له مكانة مُقدسة في نفسي ولا أعتقد أن غيره يستحق بعضاً من ثمار جُهدي.

كانت جملتي تلك تجسّد حيرة طالما مررت بها وتشتِّت تفكيري: وطن؟ وطن ماذا وتقديس ماذا؟ ما تعريفهم لكلمة وطن؟ الوطن هو أن تَعيش في مكانٍ كإنسان بحقِّ مُوَاطنةٍ وحياة كالحياةٍ لتتوقف به عن محاولات الهروب، وأنا هارب

منه وسأبقى كذلك، لكني أجبت تلك الإجابة لأني أعلم أن شركة تَعتمد على سياسة الطموح والشغف والجهد سوف تُقدر الانتماء، وبمعنى أدق سوف تجول في معادلة "من لا يملك الانتماء إلى وطنه لن يملك الانتماء لشيء".

- تَشرفت بمقابلك أستاذ يمان، سوف نراسلك بكل جَديد وشكراً لك.

قالت كلماتها وعادت إلى العمل الذي كانت تُنجزه قَبل قدومي وأنا بدوري أستأذنت منها وخَرجت مع طموحٍ مُتأرجح بين الفشل والنجاح ولا أعلمُ أين سأضع الكفن.

وبانتهاء السنة الدراسية الثانية في الجامعة أصدرت نتائج القبول تبعاً لدرجاتنا في الجامعة لإسناد بياناتهم في الاختيار، وكنتُ منهم وأدركتُ أني وجدت الشيء الذي أستطيع أن أفعله بشغف وإبداع بَعد ثلاثِ سنينٍ إلا شهرين من الجُهد والطموح وقبلها ثلاثُ سنينٍ في سوريا من الجُهد والطموح وبينهم ثلاثُ سنين من الألم والخضوع. حينها أدركتُ للمرةِ الثالثة أن النجاح هو النهوض بَعد كُل فشل بنفس درجة الحماسّة والانطلاق نحو المحاولة مرّةٍ أخرى.

* * *

التفتُّ إلى كارو وقلت لها وأنا أنظر لها بفوقيَّة، حسناً هذا كُل شيء. فاجأتها كلمتي وقالت لي أكمل أيها المُخادع، هذا كل ما كتبت عني؟! يوجد المزيد من الصفحات أريد أن أسمعها منك.

نَهضتُ عن الكرسي ولكنها أمسكت كتفي وضَغطتني من جديد وقالت مازحة إذاً سوف نتحاسب غداً في الشركة لأنك قمت بخداعي في مقابلة القبول هه.. وأفلتت كتفي ونظرت إلى الجهة الأخرى وشفتاها منتفختان للأمام مثل الطفلة التي صَرخ عليها غَريب وكَسر براءتها، عُدت إلى الكُرسي وقلت بلهجتي العربية: إن كيدهن لعظيم، طَلبت مني تَرجمةً لجملتي العربية وأخبرتها أنها تَعني أن النساء رائعات وعلمت أني كاذب واتخذت وضعية القراءة وقلت لها:

إذاً. تُريدين أن تَعرفي ماذا كتبت عنك! حسناً اسمعي، وأكملت قراءتي.

* * *

كان يَحقُّ لي العمل 18 ساعة في الشَركة كُل أسبوع بشكل يَتم تَقسيمه حَسب فريق الإدارة وتَخصصي في العمل، وفي أحد تلك الساعات المُمتعة التقيت للمرة الثانية بكارولين غيتس، هذه المرة كانت زميلتي في العَمل ولا تحتاج لأيّ نوعٍ من الابتذال للتعامل معي.

ابتسمت لي عند اللِّقاء في أرجاء الشركة دون أن تُبادر السلام وفَعلتُ بالمثل وأكملت طريقي لكنها أعادتني عندما نَدهت علي باسمي ويسبقه كلمة أستاذ، التفتُ إليها وصَحَّحته لها بلكنتي العَربية وعُدت أدراجي نحوها، أخبرتني أن اسمي مُميز ولهذا ما زالت تحفظه وأكملت:

- كَيف تسير الأمور مَعك في الشركة!

- بأفضل حال، أشكر اهتمامك

- جَيد، عندما تَنتهي من عملك اذهب إلى مَكتب المهندس كلانت في الطابق الثامن، إلى اللقاء.

وأكملت مسيرتها لتوزع على هذا مهمة ومهمة على ذاك، تتألق بكل خطوة بَين المكاتب لتَصنع فوقها هالة أنها امرأة مسؤولة عن كل شيء، أكملت مَسيرتي أنا أيضاً لأصعد هرم طموحي درجة درجة وأبحث عن مُراهنةٍ أخرى، ومَضت ساعات العَمل وأنا أتطلع إلى لقائي مع السيد كلانت، تلك الشَخصية التي يَجب مُعاملتها بحذرٍ شَديد. عندما بدأ اللقاء بيننا كنتُ أحاول إخفاء تَوتري وتركيزي ولكن هذه المرة كان أذكى مني، قال لي: اهدأ انتهى وقت الاختبار والاختيار.

كلانت شَخصية مميزة تملأ مكانها بقوّة، كان حوارنا حول حلقة البحث التي قَدمتها مع أوراقي وأنهى الحوار لتقرير مشروعٍ كان التالي:

- أن أحضّر مدوّنة على الإنترنت أُقَّدم بها أجزاء حلقة البحث بطريقة بسيطة لتصل المعلومة إلى غير المختصين.

تلك الفترة من عصر التكنولوجيا كانت فكرة تَبسيط المعلومات للمتابعين ذات جمهور كبير ومن مصلحة الشركة أن تلعب على ذلك الوتر بشكل عالمي وتقوم بترويجه وهنا أقصد أن أكون أنا المُترجم والمُدوِّن للوطن العَربي في المدوَّنة بقسم تَبسيط الحوسبة الكميَّة وغيرها من تقنيات التكنولوجيا لغير المُختصين وهذا تبعاً لخبرتي في مجالها ودراستي وتحدُّثي اللغُّتين العربية والإنجليزية بطلاقة، شَكِّل لي المشروع كماً كبيراً من الحماس. وبعد إقرار التفاصيل المبدئية أخبرني أن المدير التنفيذي المسؤول عني والمُدقق عبر وسطاء آخرين سوف

تكـون المهندسـة كارولـين غيتـس، شَـعرت أن الكـون بـدأ يلعـب لعبتـه المُعتـادة ولكـن مَـع شـخصٍ يَرفـض الخـوض بـأيّ مؤامـرة مـن جَديـد.

وبَعـد عـدة جلسـات مـع كارولـين للتحضيـر وافتتـاح المدوّنـة بعنـوان " تَبسـيط علوم التكنولوجيا لكل العالم" بـدأ العمـل بشـكلٍ جَـدي أكثـر، وبـدأت علاقتـي مع كارولين تأخـذ منحى الصَداقـة أكثـر مـن الرَسـمية الخانقـة فـي التعامـل، وفـي لقائنـا الأول خـارج إطـار العَمـل حَصـل الآتـي:

مضـى اللقـاء فـي بدايتـه بأجـواء مـن الصمـت مِنِّـي ويقابـل ذلـك أجـواء مـن الفضـول مـن كارولـين، كمـا كانـت تقـول لـي: أنـت شـخصية مثيـرة للجـدل، للريبـة والتفكيـر، بداخلـك الكثيـر مـن الغمـوض الـذي يسـتحق فرصـة الإفصـاح عنـه.

وبـدوري كنـت بـارد الأعصـاب لحـدٍ لا يُطـاق، ولكـن مَـع امـرأة أوروبيـة تَنجـذب لملامحـي الشَـرقية وغموضـي واتزانـي كانـت الأمـور تَجـري بشـكلٍ عَكسـي، كُنـت أطـاق وأكثـر مـن ذلـك.

غيَّـرت كارولـين جلسـتها الملتويـة على الكرسـي وانتصـب ظهرهـا ومن ثـم انحنت وقالـت بصـوت خفيـف يحـوي القليـل مـن الثقـة "مغامراتـك مـع النسـاء أليـس كذلك، أووه جميـع الرجـال يَمثِّلـون دور المظلوميـن أمـام بَعـض النسـاء والحقيقـة أنهـم هـم مَـن هَجـروا إحداهـنِّ للحصـول علـى أخـرى" وأعـادت جَلسـتها المُلتويـة، كانـت تُمـارس لعبتهـا لتَصيـد شـيئاً مـن تَفاصيـلِ حياتـي وتحـاول تَسـخيفها بشـكلٍ مُسـتفزّ لربمـا تُصيـب إحـدى توقعاتهـا وأنـا بـدوري أدافـع عـن نَفسـي، ذكيـة لا بـأس بهـا، ولا

أخفي أنها استطاعت استفزازي لكن ببساطة قلت "حسناً، ربما" مع ابتسامة بَسيطة وأنا أحرك فنجان القهوة أمامي وحافظتُ على صمتي.

بدأ الغضب يظهر على ملامحها، لكنه غضب مجبول بالخجل، إنها تخجل من تلك الطريقة التي تريد التدخل بها بحياتي ولا أعتقد أنها نَفسها تَفهم لماذا تَفعل ذلك.

إذاً لَيست النساء!

- ربمااا "قُلتها بعصبيَّة وأنا أعقد حاجبي وأبتسم لأحافظ على أجواء الودّ بيننا، لكن تَصميمي على الغموض انتشل مَجنونة من داخل كارولين وبكل جرأة أمسكتْ يدي! وقالت بكل إغراء: ألا تشتاق للنساء!؟

فاجأتني! ماذا تفعل؟ وأين تحاول الوصول؟! لكن بكلِ أعصابٍ هادئة سحبت يدي المُرتجفة وانتزعتُ ابتسامتي عن وجهي ليبقى حاجبي يُعبران عن غَضبهما وصمتُ وأنا أراقب ابتسامتها الماكرة، كنتُ أكره التلاعب بالمشاعر ولهذا تَظاهرت أن الوقت قَد تآخر وأن لدي بَعض الأعمال يَجب إنجازها، وهنا رَمت كلمتها الأخيرة: كنت أختبر صدقك، وأنت صادق، أنت فعلاً مُعذّب من النساء كما راهنتُ عليك.

لم أعرف مع من كان الرهان. ولم أفهم جرأتها التي اقتربت من الوقاحة لكن عَلمت حينها أنها امرأة خطيرة نوعا ماً، أو بشكل أدق ذكيَّة فوق العادة، تَحمل مَكراً لَم أدركه بَعد!

- كارولين عزيزتي، ببساطة أنا لَست بحالةٍ تَسمح لي التَصرف على طبيعتي، أو لنقل أتصرف كما يتصرف الرجال مَع امرأة جَميلة، لهذا أستأذن منكِ الآن دون أن أعلم شيئاً من تفاصيل رهانك، لا أريد الخوض بشيءٍ فقط.

قالت لي بنظرةٍ مُغرية وهي تَعض على شفتها "سوف تَفعل" وقَبل أن أتكلم بكلمةٍ واحدة أكملت كلامها: هيا بنا نَرحل وأوصلك إلى مَنزلك في طريقي. نَظرت إليها وحَقنتُ كلماتي. بقينا طوال الطريق صامتين، وعندما دَخلتُ مَنزلي نَظرتُ للمرآة وسألتُ نَفسي: مَن هذا الأحمق، رجل تَصرف بغباء منذُ قليل ولا يَعلم لماذا، أنت هناك أجبني هَل تَفهم نفسك! هَل تُدرك ذاتك أو أنك انحنيت من جديد للجهة الأخرى، لَم تكن الحياةُ يوماً سوداء أو بيضاء بل هي رماديةٌ دوماً وأنت تُحكم عينيك لتلونها، كُن أنت بواقعك وتَخلص من الماضي ليس كرهاً له بل حباً لذاتك، وتلك المَغربية التي تَسكن بداخلك سوف تَبتسم عندما تراكَ سعيداً وسوف تصيبها نوبة صرعٍ أخرى في قبرها عندما تراك مُنعزلاً، كُن أنت كما أنت ولا تَنعزل وعش حياتك التي أردتها.

كان صَدى الكلمات في رأسي يَحولني وأنا أسمع ذاتي المَنطقية وهي تُوبخ ذاتي الضَعيفة المُتعلِّقة بحبال الماضي.

[XI]

مضت أيّامي في العمل وأنا أراقبها، أتجنَّب المواجهة معها بشكل مباشر حَتى في جَلسات عملنا على مدوَّنة تَبسيط العلوم. وبعد فترة تَمَّ عمل إحصائية لأكثر مشاريع الشركة الترويجية التي لَعبت دوراً في جَلب الإعلانات العالمية وكانت مدَّونة تَبسيط علوم التكنولوجيا من بين تلك الإحصائيات ولهذا أُعلن عن حفل لموظفي الشركة على شرف تلك السلسة من النجاحات.

جمع الحفل كبار شخصيات المُجتمع والساحة العلمية وكنت أفتخر بالتواجد بينهم. لطالما كان هذا جزء من طموحي، ها قد انقلب الزمن فأصبح ذلك الشاب المُترنِّح الذي يحاول ترميم قلوب المحيطين به، شاباً مستقلاً وناجحاً في محيطه العملي.

تألَّقت كارولين تلك الليلة بفستانها الأسود الضَّيِّق على قامتها الطويلة، تَتمايل مُعبِّرة عن مفاتن جسدها بمساعدةِ تلك الفُتحة في أعلى فستانها التي تُعلن عن إغراءٍ عَجيب في صدرها، كانت تَقف مائلة الخَصر وكأس النبيذ الفاخر بيدها والجميع يُغازلها ويتودّد من نَجمة الحفل المُتزنة، إلا أنا خائفٌ من الاقتراب منها دونِ سبب.

بين ضوضاء الحفلة و تبادل الحديث عن نجاحات الشركة والحوارات العملية والعلمية وغيرها اقتربت مني كارولين ورَمت إلي ابتسامتها الساحرة، وبدوري ابتسمت لها ابتسامه عابرة، فاقتربت أكثر وهَمست لي "إنّي أعلم كل شيء!!"

ارتعدتُ للحظة لكن سرعان ما تجاوزت ذلك ببساطة فهي لا تعلم سوى القليل من الأساليب الذكية كي تثير اهتمامي، لكن لماذا! إنه جنون النساءِ مَع الرجل الغامض اللامبالي.

رددت عليها بنفسِ طَريقة الهمس والاستخفاف: وأنا أيضا أعلم أنك تعلمين كل شيء.

وبنفس نبرة الصوت وبكل ثقة أعادت جملتها بنوع من العناد: أعلم كل شيء، يا لك من شخص بسيط لكنك استثناء، لكن هذا لا يكفي.

- عفواً كاورلين، ولكن لا يكفي لماذا بالضبط؟ "قلت بلهجة ساخرة ولم أكن مخطئاً بتلك السخرية مَع شخصية بدأت بتَجاوز خطوطٍ حَمراء في التعاملِ معي".

قالت: لا يكفي لتحظى بي، تحظى بي أنا، ما زلت صغيراً على ذلك.

ضَحكتُ حَتى اهتزّ كأس النَبيذ بيدي وقلتُ لها أتتكلمين بجدية، ما بكِ تَحولتِ إلى شخصيّة ساخرة من نَفسك فجأة، ومن ثم كُفِّي عن هذه الطريقة الطفولية أرجوكِ.

- حسناً رافق الطفلة قليلاً لأخبرك بشيء.

- إلى أين!!

- إلى مَعبدي الخاص، هُناك سوف نُخرج ذاك الشيطان من داخلك لتتخلَّص من انطوائك وغموضك.

وذَهبنا ولا أستطيع التَفسير لماذا ذَهبت، إنه يُشبه الإغواء الأخير بين الهروب والحرب.

وكان ذَلك المَعبدُ هو منزلها، ولكنَّه فعلاً كان مثل المَعابد في تفاصيله الكلاسيكية ولوحاته من الفنّ الانطباعيّ والتراجيديّ. كان مَنزلاً يَخلط بين الطبقة المَخملية والوسطى والفَقيرة، بسيطاً وثميناً بآن واحد ويَشترك بصفةٍ واحدة بأنه مُميَّز وغريب كالمعابدِ حقاً، كان ذا إضاءة خَفيفة ونوافذٍ زُجاجية كَبيرة يَعزف عليها الشتاءُ ألحانه، وهناك في الوسط يوجدُ طاولة رُخامَّية بيضاء عليها تُحف زجاجية تُعبر عن آخر صيحات التكنولوجيا، إنه منزل مَجنون كصاحبته المجنونة التي تَغيرت بلحظة.

وعندما بدأت أدركُ ذاتي سرعان ما دخلت إلى عالمٍ آخر، عالم من الإغراء لا تنجسّه الكلمات والذكريات، جلسنا على الأريكة السوداء أمام لوحات فَنية منها ذات دلالاتٍ دينية ومنها ذات دلالاتٍ ثَورية وأخرى لا تَحمل شيئاً سوى الجمال والفّن العريق الذي يُفسره كُل ناظر على هواه. جهَّزت كارولين كأسين من الفودكا وجلست على مقربة مني صامتة مثل صمتي بدون كلماتٍ تُبرر نَظري لشفتيها، وإذ أدركتُ نَفسي وكَسرتُ نَظري، تَقودني رائحتها المُغرية للعودة نَحوها والتأمل من جديد، لم أجلس بأعصابٍ هادئة لأني أعلم أن تلك المرأة لا يجدر الوثوق بها، امرأة ذكية ذات سلاحين يَستغلانِ شَهوتي الذكورية، جمالها وذكائها. توارت كارولين عن ناظريّ فجأة وتركتني وحيداً مع كأسي وتساؤلاتي،

أخفضت رأسي واتكأت على يدي المسنودة على ركبتي أنتظر قدومها حَتى شعرت بيدها على كتفي من الخلف وشفتاها تقترب مني وقالت:

أتعلم ما أسوأ شيء بالرجال؟ إنهم مثل السجناء في سجن تحكمه امرأة وعندما تفتح الأبواب لتكون أول فرصة للهروب يتجمدون ويعودون ليلتصقوا بحائط السجن دون أن يُبرروا ذلك، والأغرب من كُل ذلك أنه عندما تُغلق الأبواب يندمون من جديد!

خلعت فستانها بلحظة لم أدركها وأنا أجول بَين أفكاري المُرتبكة، ولم أدرك سوى أن تلك المجنونة تلتهم شفتي، أدركتُ جملة أفلتتها بين القبلة والأخرى "سنتين ونصف وأنت من دون نساء أيها الظالم!" ومن أول لحظة أدركت خبرتها في تحريك لسانها داخل فمي، ابتعدت عني.

ابتعدت ورمت جسدها العاري على الأريكة وقالت:

- والآن إن أردت الذهاب، اذهب.

وأنا ما زلت أنظر إليها بصمت، فأعادت جملتها بعد أن أشعلت سيجارتها البنية الرفيعة: ألم تسمع؟! إن أردت الذهاب اذهب!!

حينها أدركت كم أن بَعضُ الرجال ضعفاء، مُترهلين التفكير ومشوشين مثل الأطفال وهُم كذلك أمام جسد امرأة يَملأ المَعبد بالإغراء.

نهضت ومشيت نحوها بخطواتٍ مُترنحة، في كُل خطوة أرى ابتسامتها وهي تناديني، فمها يرتخي والشفاه تنتظر وهكذا انتهى بي الحال!!

حسناً لا بأس، وشاء القدر، وحان الصباح في يومٍ جديد!

عندما بدأت أشعة الشمس تخترق النوافذ الزجاجية الكبيرة تَحسستها رموشي لأفتح عيناي وأجد كارو تنام بعمقٍ على كَتفي مثل الطفلة، لَم أُرِد أن أحدثها بكلمةٍ قَبل أن أهرب نحو عالمي ودَفتر ذكرياتي ومَكتبتي وأركز أفكاري المُشتتة مما حَدث، سَحبت يدي بهدوء من تحت وجنتها وارتديتُ ملابسي ورحلت تاركاً ورائي ذكرى ليلتنا ورائحة عطري على فراشها وذَهبتُ إلى منزلي لأسرق القليل من ساعات النوم قَبل الذهاب إلى الجامعة.

عندما التقيتُ بها بَعد تلك الليلة تعاملت معي بطبيعتها السابقة وكأنها مُنفصمة الشَخصية.. تَقول كلماتها بكل هدوء وكأن شيئاً لم يحدث! وكأني لم امزّق شفتيها في لحظة مُوتّقة ولم أحملها نحو الأعلى لكي تهبط في حضني على سريرٍ يَشهد على ذلك، وكأني لم ألتحم بها وأمتصّ حرارة جسدها المُرتجف ولم استمتع برعشتها ونشوتها! وكأن شيئاً لم يحدث.

في أثناء حديثنا أخذتُ أنظرُ لها باستغراب فقالت لي: لما يبدو عليك التوتر؟ وسَكتت قليلاً وأنا لا أزال أنظر بنفس الطريقة وأكملت كلامها: مهلاً مهلاً لِمَ تنظر لي بهذا الشكل.

قالت كلماتها بكل ثقة، مما زاد جنوني، وزاد غضبي!. وأكملت قولها: إذا كنت متعب تستطيع. قاطعتها قائلاً: كفى كارولين، ماذا تحاولين أن تفعلي؟، ما حدث ليس بأمر يدعو لكل هذا الاستهتار، تُريدنه عابراً لا مشكلة في ذلك وأنا مثلك أريده عابراً لكن لا داعي للاستهتار إلى هذا الحّد.

- تُريده عابراً مع أنك تُلمّح للموضوع، أرجوك يمان ما بك!

كانت مُحقة برمي سنارة صَيدها لتصطاد تناقض أفكاري. وأكملت كلامها:

- ما رأيك بأن أقول لك أني كنتُ أراهن عليك كما قُلت لك من قَبل ولكنك تناسيته أمام جَسدي العاري! اهدأ قليلاً قَبل أن تَغضب لأكمل لك، تَستطيع القول أيضاً أني لا أريدها عابرة بل مُراهنتي أوصلتني لأن أختبر مدى شعورك ومتعتك بليلة الأمس ولهذا تَجاهلت الموضوع في مُعاملتي معك اليوم، أتعلم لو أنك كنت مجرد مارّ على جسدي مُستغل لرغبتي لكنت الآن تتجاهل ما حدث مثلما فَعلت أنا، لكنك استمتعت بشيء ما غَير الجنس، أنت تَملك بداخلك رغبةً في الهروب، هروب من ماضٍ يؤرقك ربما، لا أعلم، ولكنك تجاوزته بممارسةِ رَغبتك مَعي. بالمناسبة يمان أنا أعشق علم النفس فالحياة مُغامرة يَجب أن تَخوضها مَع كُل الأنواع من البَشر.

- أنتِ فعلا غريبة، ذكية ولا أنكر ذلك، لكن ماضيّ يا كارولين ليس مثل ليلةٍ عابرة مع فتاةٍ جميلة، ليلةٍ معك.. ماضيّ صادق وكل شيء نَبع من قلبي المغفل بصدق، وتألمت جداً.

- يمان يمان كفى! ماضيك صادق؟ هذا وجه الاختلاف؟ حسناً، وماذا عن ليلة الأمس التي ما زالت تشغل بالك وتفكيرك وتصيبك بالاضطراب لأني قمت بتسخيف الموضوع؟ ألم أثبت لك منذ قليل أنها صادقة أيضاً؟ أتعلم ما مشكلتك يمان، هي أنك تتعلق بالماضي بنوع من القدسية، سجن مقيت تضع نفسك فيه، من أجل ماذا؟ فتاة؟ اثنتين؟ ثلاث، خمس وعشرون، وماذا بعد! سحقاً للدراما يا رجل وإلى اللقاء.

كانت بكلامها تريد إيصال فكرة لم تنبت بداخلي يوماً، ليسَ سذاجةً مني بل ضعفاً في نفسي البَشرية المُغفلة.. ونَبت الصوت بداخلي من جَديد ليقول:

الحياة أمامك، لكن هناك شيء بداخلك دائماً يخدعك ويكذب عليك ولستُ أنا هذه المرة بل صوت آخر يقول لك "لا للسعادة لا للنسَيان أنت محطّم وموسوم بعشقِ امرأة راحلة" وأنت تستمع له كالمُغفل من جديد.

وأنا أفكر بذلك عَلمتُ كمّ أملك من الأصواتِ في داخلي وكل منها يَدعوني بالمغفل، ربما أنا كذلك فعلاً، ربما إني لا أجيد الحب لكن أقسم بكل الآلهة أني عشقتها بكل ما أملكُ من سوء، لا يوجد إنسان يفهم مَنطقه بالكامل لأنه بذاته كائن مَمسوخ مُتناقض، والأسوأ أن الحب لا منطق فيه والعشق لا يُفسَّر والنسيان لا وسيلة للحصول عليه، فسحقاً لعالمٍ يَطلب التَفسير لما يَحدث في داخلي.

وهكذا عِشتُ مَع كارولين في مَعبدها المُميز، ونَقلتُ مكتبتي ودفتر ذكرياتي إلى أمامِ نافذتها الزجاجية لأكون رجلاً مَخبولاً لا يَشعر، دائم الهرب وهي راضية

بذلك تماماً لتشبع رَغبتها في المُغامرةِ مَع رجلٍ شَرقيّ راهنت عليه مع ذاتها، لكنها ستبتعد عنه في أحد الأيام عندما تنتهي مراهنتها.

***

أغلقتُ دَفتر ذكرياتي ورَفعت رأسي إلى الأعلى مُتكئاً على الكُرسي ومن ثم التفتُ إليها وابتسمت لأقول لها "النهاية"

قالت كارو: المرأة التي تمضي حياتها مخدوعة بأنها ذكية ومتكلمة واستثنائية، ثم تقف عاجزة عندما يصفها رجل بكل صدق، يصفها كما يفكر فيها، وكما يشعر، وكما تصيح أصواته الداخلية دون تآويل وخداع، هي أكثر امرأة محظوظة في العالم، مثلي أنا أيها الهارب المجنون.

ثم غمرتني بحنان.

- هذا أنا يا كارو، أنا كما أنا.

لَم أقل يوماً لها أحبك من ذاتي، بَل كنتُ أرد فَقط عندما تُصّرح لي عن حبها بنفس الكلمة كالببغاء دون شعور، المرأة تُشبه غموض الآلهة بشكلٍ غَريب وربما هي الطريق للوصول إليها، نَعبر المرأة ونَخوض بجسدها وبناتِ أفكارها وعينيها المعبرّة حتى نصل إلى تلك الآلهة القابعة بداخلنا، وتَتعدد الآلهة وتَتعدد طُرق الوصول وكُلهم لَهم مفتاح واحد وهو الصدق والنقاء، كُنّ صادقاً معها وكن نقياً لا أكثر فتلك الآلهة تُقدّس صفائك، وإن لَم تَفعل فأنت لا تَستحقها وهي لا تَستحقك.

ثلاثُ ساعات مَضت على جلوسنا أنا وكارو الشقراء، تَجمَّد الدم بأقدامنا وكان لابد من أن نَتحرك لمكانٍ ما، رُبما المَطبخ لنجهز الفطور، ربما لغرفة النوم لأكمل رحلة تَعمقي في آلهتي الجَديدة، وربما سَوف أبقى هارباً أمام مَكتبتي وأطلب منها الرَحيل.. لا أعلم ما زلتُ رجلاً مَجنوناً فَاقد التركيز من اللحظة التي تَركتُ بها زهرة الياسمين في المَغرب.

- مَتى سَوف تعود "قالت لي كارولين بشكلٍ مُفاجئ". أخبرتها أني لا أعلم، ربما عندما آخذ إقامة دائمة هنا أو الجنسية الكندية وفي الحالتين الأمر يطول، سَكتت للحظات ثُم أعادت السؤال: وأنت تُريد العودة؟

كُنت في داخلي راغباً بالعودة، اشتقت لصباحي النقّي في دمشق ممزوجاً بصوت أمي ليكتمل النقاء، فأنا لَم أنله منذ سنينٍ طَويلة، وأكثر ما كنتُ أحتاجه أن أتخلص من غُربتي بَعض الشيء في إجازة قَصيرة أسافر بها إلى دمشق لأكون الراحل المَكسور الذي عاد بنجاحٍ وأجنحة تُغطي ضوء الشمس وتَستحق الفخر، كان لي رَغبة كَبيرة في زيارة جامعتي وأساتذتي القدماء لأبتسم لهم وأخبرهم ما الذي أنجزته في السنين الأخيرة التي رَحلت بها عن الجامعة، وأكثر ما تتوق إليه نفسي رؤية أبي ذاك الرجل الحكيم لأستقبل منه قُبلة فخرٍ على جَبيني لأعلم حينها أن اللوحة اكتملت في داخلي وقَد أنجزت ما أنجزته، بدأت أشرطة ذكرياتي ورغباتي وحماسي بالمرور من أمامي حَتى شعرت أني أشتم رائحة قَهوة أمي وضحكة أبي وصوت بنتِ أخي التي لَم أرها بَعد. قاطعت كارو أفكاري وهي تَلوّح بيدها أمام وجهي وتقول يبدو أنك تَشتاق لوطنك، وأكدّتُ لها الموضوع لتُقدم لي مُفاجأة غَير متوقعة.

أزاحت كُرسيها ورَكعت أمامي وهي تقول أرجوك أن تَقبل.

- أقبل ماذا؟!

- الزواج بي.

هَززت رأسي مُستغرباً بينما أكملت كارو كلامها:

- يمان أنت من سُلالةٍ أستطيع أن أصفها بسلالة المُنقذين، أتعلم أولئك العباقرةِ المجانين الذين ينقذون العالم دوماً، أدباء وفنانين وعلماء وسياسيين! جيد، أنت منهم، فدعني أقدِّم لرجلٍ سيضع بصمةً في التاريخِ يوماً ما هديّةً صَغيرة وهي زيارة إلى وطنه.. سوف أتزوجك لأعطيك الجنسية، رجل مثلك، مغامرة مثلك قَد نقلتني لعالمٍ من الجنون والعشق والهروب والحرب مع الذات تَستحق أن أقدّم لك هديةً مَجنونة، الأمر لا يتطلب أكثر من أن نذهب لنُعلن زواجنا وأعطيك جنسيتي وتَذهب إلى سوريا وأعدك كُل الوعود وأقسم لك بكلِ شيء وأتعهد لك إن أردت أنه سوف يتم الطلاق في أولِ لحظةٍ تَعود بها إلى هنا، وأنت تَعلمُ كل العلم أني امرأة تَعيش للمغامرة وسوف أبحث عن مغامرةٍ غَيرك، وبهذا الشّكل تَكون قد كُشفت كل الأوراق بيني وبَينك، فاعتبرها هديّة الوداع.

مَضت الثواني وبين عيني وعينيها ألف سؤال وعشرات إشارات الاستفهام والتعجب وكُل منّا تؤرجحه أفكاره مِمَّا حصل، ابتعلت ريقي الجاف من القراءة وعُدت أدراجي نحو دَفتري وبقيت صامتاً لدقائق وكارولين تُحافظ على نظرتها وابتسامتها وعندها قُلت بصوتٍ يشبه حفيفَ الأشجار:

- أُحبِّك، وكانت تلك المرةِ الأولى التي أقولها من ذاتي لامرأةٍ ستغادرني، قلتها وأنا أستلم منها هديَّة الوداع الغَريبة.

قَبلَّتُها مُفتعلاً كُل طاقتي لإرضاء أنوثتها البالغة ومرَّرت يدي تَحت خُصلة شعرها وأنا أمسك رقبتها وقلت كم أنا مُمتنٌّ فابتسمت لي وذَهبت لتحضرِّ بَعض العملِ للغد وأنا أنظرُ إليها وأحاول أن أقررّ هل كانت تُخفي وراء تلك الابتسامة رضا لما وصل إليه رهانها أو ابتسامة عابرة لشخصٍ عابر في حياتها المُمتلئة بالمغامرة؟

في تلك الفترة مَضت علينا أيام استثنائية بعلاقةٍ غَير مَفهومة بين رجلٍ مضطربٌ في ذاته وامرأة راحلة ولكنهما يعيشان مغامرة تَشفي شغفهم بهذه الحياة المشفرّة، وعندما تمّت أمور الزواج واكتساب الجنسيّة بعد بضعة أشهر كان الجميع في دمشق يَعلم بأمر زيارتي من أصدقاء وعائلة وأقارب ولم يتبقَ سوى أصدقائي في مشروعي الأول في حياتي وهو منظمة ثورة الوعي، ذاك المشروع الأكثر قدسيةً في نفسي ولهذا دَخلت لأفَعِّل حسابي الوهمي المَهجور منذُ سنين وأخبرهم بزيارتي ساعياً للقاء بهم على أرض الواقع وكان لذلك أثر كبير في المنظمة كوني أصبحت شخصيَّةً تعمل في شركة كوريل وأحد منظمي مدوَّنة عالمية تُسمى تبسيط علوم الحاسب للعامَّة.

وجرّاء ذلك تَمّت إضافتي إلى مُحادثة صوتيّة عامة بين المؤسسين القدامى والمدراء المُستجدين في المنظمة وفي أثناء فَتح المُحادثة استفسر شخص عن موعد عودتي بالتحديد وكان موعدي المُختار هو 03\03 ذلك الموعد الذي أحتفل به كُل سنة منذ اللحظة التي بَنيت فيها طموحي أمام لجنة التحكيم في دمشق،

وحسب ما أخبروني كان ذلك الموعد قَبل موعد مؤتمر TEDx الذي تشارك فيه بعض الشخصيّات من منظمة ثورة الوعي ولهذا طُلِبَ مني أن أكون أحد المُتحدثين في المؤتمر لأتكلَّم عن تجربتي وذلك سرّني جداً بَل شعرتُ بالفخر لعودتي إلى منصةٍ انطلقتُ منها لأتحدثَّ عن تَجربتي في هذه الحياة.

تَم نشر الإعلان عن مُشاركتي بَعد ساعات من المحادثة، وبينما أنا أراقب المتابعين وتعليقاتهم على الإعلان لفّت نظري أحدهم وهو يصرّ أن أفتح الرسائل الخاصة في حسابي ليتحدَّث معي وبما أن إصراره كان غَريباً بَعض الشيء قُمت بفتح الرسائل وبين مئات الرسائل وجدتُ رسالته وكانت:

- مرحباً يمان..

- تفضل..

- أنا مريم..

أثارت رُعبي وتَيبَّست يداي بَعض الشيء قَبل أن أكتب لها ثم بَقيت صامتاً، ولم أكتب شيئاً أيضاً بَعد رسائل عدّة منها، كنتُ أفكر كَيف وصلت مريم إلى هنا وتجاوزت تطرّفها لتتواجد في منظمة ثورة الوعي وماذا تريد مني بعد هذه السنين، وبعد قليل بدء الهاتف بالرنين، كانت مريم تستخدم خاصيَّة الاتصّال في برنامج المحادثة لتصل لي، أجبتها.

قالت:

- كيف حالك، يمان لا أريد سوى أن أطمئن عليك بَعدما رأيت اسمك وصورتك في الإعلان وعلمت أنك سوف تَكون أحد المُتحدثين في مؤتمر TEDx في دمشق.

- أنا بحال جّيدة شكراً لك.

- حاولت التواصل معك من قبل لكن لَم أصل إلى شيء، رقم هاتفك مُغلق ولا أعلم عنك سوى اسمك الأول ولم أعلم أيضاً من قبل أنك أحد مؤسِّسي هذه المُنظمة لأحاول التواصل معك من خلالهم.

- جيّد.

- ألن تخبرني شيئاً ما عن نفسك يمان!

- لا.

- لماذا تعاملني بهذا الشكل، أريد أن أطمئن عليك فقط، وأعلم ما أنجزت في حياتك وكيف مرَّت سنواتك الأخيرة بعدما رَحلت.

- جيد، عندما أصل إلى دمشق تَستطعين رؤية البثِّ المُباشر عندما أتحدث في مؤتمر TEDx وتَعلمين كل شيء عن سنواتي الأخيرة، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء يمان.

لَم أعلم حينها لماذا عاملتها بذاك اللؤم، لكن الحقد الذي يَسكنني نحوها كان كافياً لأكون قاسياً عندما ألتقي بها ودون أدنى ذرَّة رحمة.. إنها شيء من ذكرى رَحيل ياسمين ولا تَستحق منّي سوى النكران بقدرِ عِشقي لملاكي السمراء، لَم أرى في مريم سوى كلماتها وتهديداتها السامّة، والتي علقت في ذهني على مرّ الزمن، لَم أرَ بها شخصاً يُحبُّ ياسمين بل هي شخص بلا ضَمير ولا حياء

وها قد قاده الزمن ليتخلَّص من أفكاره البالية ويكون بيننا نَحن النَّهضويين في المُجتمع فلا شيء يبقى على حاله ومنارة التنوير ساطعة في كل عصر ولن تَنطفئ طالما حِبر أقلامنا يَكتب على سماء النهضة نَحن الثَّورة، نحن ثورة الوعي.

بينما اختفت الإشارة الخضراء بجانب اسم مريم شَعرتُ أني في وقتِ الحصاد لما كنتُ أقول في حديثي معها قبل سنين فإني أحصدُ وجودها هنا في المنظمة وهي تعمل على نشر النهضويَّة من أجل مُجتمعٍ أفضل، ولأنها هنا فقد أصبحت أحد عناصر المُجتمع الأفضل التي كانت ياسمين ستَفتخر بها لو أنها على قيد الحياة.

وهكذا انتهت قصتي وأنا أكتب على الصفحة الأخيرة من دفتر ذكرياتي أني فَقدتُ حبيبتي وبنيتُ نَفسي بمساعدة روحها الراحلة لأكون أنا كما أنا ودعوت أحد العقول لتعيش النهضة الفكرية معنا، فأغلقتُ دَفتر ذكرياتي وقَلبي نُصفه فقدان لذاتي الضعيفة والآخر فقدان لروحي الراحلة وبينهما اسمُ ياسمين مَحفور حَتى الأعماق لتبقى تَعيش معي كُل مُقتطفات نجاحي وفشلي وعشقي وكرهي وحربي مع أصواتي الداخلية، كان رَحيلي إلى دمشق في اليوم التالي فأطفأت الأنوار وسيجارتي سوياً لأضبط الهاتف على وقتِ الاستيقاظ نحو المطار.

حسناً. الساعة الثَّامنة والنِّصف صباحاً، ضبط، إتمام.

بقي ثمان ساعات وثلاثُ دقائق "الرسالة التي تَظهر على شاشة الهاتف"

ياسمين على قيد الحياة!

كانت تِلك الرسالة التي وصلتني قَبل أن أضع هاتفي تَحت مخدتي وأستغرق بأحلامي للقائي مَع عائلتي.

" ياسمين على قَيد الحياة! "

إنها مَريم تقول ذلك لي، انتفضتُ وأثرتُ رعب كارولين وكَسرتُ كأس النبيذ بجانبي جراء انتفاضتي والكهرباء في جَسدي تُحطِّم خلاياي فاتصلتُ بها وخَيّم الصمتُ وصوتُ بكائها يَرثي حالتها المُدمرة.

تَكلَّمي يا مريم فتقول لي أنها عاجزة، تَكلمي فإني راكع أمام القَدر فتقول إنها آسفة، تَكلمي فإني مَصلوب أطلبُ غُفرانك فتكلمت:

- عندما أسعفنا ياسمين إلى المُستشفى تَم إسعافك إلى مُستشفى آخر وهنا كانت فُرصتي لأنفذ كَلمتي "لَن أسمح لك بأن تأخذها مهما كَلف الأمر".. قَد دخلت ياسمين في حالة غيبوبة بَعد نوبة الصرع المؤذية واستيقظت بَعد أن رحلتَ أنتَ من المغرب بيومين، فعندما أتيت إليك في المستشفى كان ردائي الأسود كاذباً، ودموعي كاذبة أيضاً وقسمي بأنها ماتت كاذبٌ أيضاً وصورة العزاء التي أرسلتها إليك كاذبة أيضاً فهّي صورة عزاء أب ياسمين عندما انتقل إلى رحمة الله.

وأنا استغلَّيتُ تلك الصورة التي لا تظهر بها ياسمين لأحوِّل العزاء باسمها، فتلك الصورة قَد استخدمت من قبل الصحافة في الجرائد المَغربية التي كان ينشر بها أبو ياسمين مقالاته، من أجل أن يرثوه وينشروا خبر موته المُفاجئ

فأنت تعلم طريقة الصحافة في اختيار الصور التي تُثير المشاعر لدى القراء، أبو ياسمين كان يا يمان مثلك شخصية تملأ أفكارها عقول الكثيرين كما كانت تقول ياسمين.. وكُل شيء لم يكن أكثر من مسرحية قذرة افتعلتها لأحافظ على وجود ياسمين في حياتي وإنقاذك أنت أيضاً يمان.. فأنا لَم أكن كاذبة بشأن أحمد أخو ياسمين بل كان فعلاً سوف يقتلك لو عرف مكانك، فاعلم أني لَستُ سيئة إلى هذا الحدّ.

وياسمين أُحبطت بَعدما قرأت رسالتك، أقصد الرسالة التي كَتبتها باسمك وأعطيتها إياها مَع وردة الياسمين بَعد رَحيلك، كتبت فيها أنك تَنسحب من كل شيء وأنك سوف تعود إلى دمشق ولا تريد معرفتها بَعد اليوم وكُل شيء انتهى ولتحافظ على كرامتها قررت أن تَبقى بعيدة عنك، قَد قسوت عليها بالكلام جداً يا يمان وأخجل أن أخبرك بكل شيء، ولكني لَم أتوقع أن الأمور سوف تتفاقم هكذا فياسمين عاشت ثلاثة أشهر مُحتجزة في المنزل من قبلِ أخيها وأمها بدون أي وسيلة اتّصال مع العالم الخارجي، والمؤلم يا يمان أنهم عندما سَمحوا لها بالخروج لم تخرج بل بقيت مُكتئبة طيلة السنة دون أن تتفوَّه بكلمة واحدة ومنذ تلك اللحظة وأنا أرى كوابيس الذنب تُلاحقني فلا أستطيع أن أخبرها ولا أن أخبرك.

أجلسُ أمامها فأبكي وهي تواسيني، أنا المُجرمة وهي الضحية ورغم ذلك تواسيني ظنَّاً أنّي أبكي مُساندةً لها فهي لا تَعلم أن دموعي تَطلبُ الغفران منها وهذا أكثر ما يؤرقني يمان، تَعبتُ جداً وأنا عاجزة عن فعلِ أيّ شيء.

حَتى اليوم بَعد أن عادت ياسمين إلى حياتها الطَبيعية، وتَحرَّرت من ظلم أخيها الذي سُجَن بتهمة الشروع بالقتل لأحد المدوّنين المغاربة فإنها ما تزال تَحمل الحُزن في أرجاءِ روحها العابسة التي لَم تَبتسم منذُ أن رحلتَ أنت، أنا مُتعبة جداً وفَقدتُ النور من عينيَّ ليحل مكانه السواد والعتمة المُخيفة يا يمان.

عندما انتهت مريم من كلماتها التي تَحمل الحياة كما تَحمل الإجرام انتفض العشق في داخلي وعاد الاشتياقُ ليملأ نصف قَلبي الفارغ، والنصفُ الآخر المُحترق فاضَ بأحلام اللقاء، ابتسمتُ للكونِ ونَهضتُ نحو دَفتر ذكرياتي لأمحو كلمة النهاية بقلمٍ مَزَّق الكلمة وما تَحتها من أوراق.

لا لا لم تَحِن النهاية بعد، بلُّ كان كُل ما كتبت بداية العشق الأسمى، وصرختُ باسمها ليهتزّ الكون من جديد وأستعيد نَبض قلبي مرة أخرى.

الخاتمة

- في المغرب -

كانت تَقفُ على المسرح وخَشبة المنصة تَرتجُ تَحت أقدامها مُرتعبة من ابنة الآلهة آفروديت فوقها، تَنظرُ للجمهور وتَثور لتَهتزَّ ركائزهم، ولكنها لَم تَلمحني بَعد فأنا أجلسُ في العتمةِ مَع زهرة الياسمين بين أصابعي أراقبها، وأتذكَّر المَشهد الأوّل الذي عشقتها بسببه في دمشق.. لَم تتغير كثيراً لكنها فَقدت نَبرتها الحنونة فهي غاضبة ولا ألومها فأنا غاضب أيضاً، فأنا أريدها أن تَرمي بنَفسها من هناك لأتلقاها بيدي وأهرب بها بعيداً عن هذه المنصّة، سأفعل ذلك بَعد قليل أعدُكِ يا ملاكي، نظرت إليّ وأنا في عَتمتي بَين الجمهور المَغربي، وقالت وهي تبتسم لي في نصٍّ ارتجالي وعيناها تَلمعُ بالدموع:

الحُب هو جنةٌ تَحترق عند الفُراق، وأنا لا أريدُ دخول الجنّة بل أفضّلُ البقاء في الجحيم على أن أحترق بعدما أزدهر.

مَشَت نحّو حافة المَسرح ورَكعت ثُم وقفت وبيدها زَهرة الياسمين لتعود إلى مُنتصف المنصة وتستقبل أحضاني، ليصفق لنا الجَميع ظناً منهم أنّي جزء من العرض..

ولدت ياسمين بين يديّ من جديد على تِلك المنصة وبَين اصوات الهتافات من الجمهور، وعاد البريق إلى عيناها واصبحت الدموعُ نقية أكثر كما كانت

المـرة الأولـى التـي أبكـي بهـا أنـا الرجـل الشـرقيّ أمـام امـرأة.. امـام مـلاك يَسـتحق الابتسـامة بقـدرِ صفـاء قلبـه.

وبَين ضوضاء المشاعر امسكتُ يدها، كانت هُناك زهرة ياسمين يابسة!

أنهـا الزهـرة نفسـها التـي تركتهـا فـي المشـفى حيـثُ تركـتُ قلبـي وهـا أنـا اسـتعدتهم مـن جديد..

"القلوب النقية عندما تَحترق يتبقى منها رمادٌ أبيض، فالألمُ لا يشوه حقيقتها!"

- النهاية -